



الموسوعي الأديب

# ابن عبد البر الأندلسي

ثقافته الأدبية وشعره

(نموذج للتكامل المعرفي)

إعداد: د. ليث سعود جاسم

(نموذج للتكامل المعرفي)

مقدمة

غلبت على حضارتنا خصيصة تميزت بها عن الأمم الأخرى وهي موسوعية علمائنا بل وبعض حكامها. وهي ظاهرة لم تشع في الأمم الأخرى، وذلك أن المنطلقات العلمية في الحضارة الإسلامية تنبع من مصادر أصيلة يُتبعدها باتباعها وهي كتاب الله وسنة رسوله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهذه المصادر جعلت العلم وآلياته وغاياته محوراً لبناء الحضارة، وجعلت الفعل الحضاري وعمارة الأرض عبادة.

وجعل النظر في الكون وقراءة الأحداث واستقراءها وبناء المواقف على أساس هذا النظر والاستقراء منهجيته.

وما يميز هذه الحضارة أنها تدور حول محور رئيسي ينتظم كل أنشطة الإنسان في هذا الكون ألا وهو (توحيد الله) ولذلك فالمعرفة الموصلة إلى هذا التوحيد تكون معرفة شمولية متكاملة يعزز بعضها بعضاً لتتطابق بالتوحيد في كل جانب من جوانب الحياة الذي يقود إلى الإتساق بين نواميس الله في كتابه المسطور «القرآن» و نواميس الله في كتابه المنظور «الكون» فيتحقق معنى العبودية ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤]، ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٦].

وكان مدار الكشف عن هذا النموذج الحضاري هو شخصية علم من أعلام هذه الأمة ألا وهو الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري الأندلسي الذي جمع ثقافة موسوعية ترابطت فيها العلوم الإسلامية بنظرة شمولية متكاملة مع العلوم الأخرى، فهو واحد من هؤلاء العلماء المتميزين بموسوعية معارفهم وشمولية ثقافتهم، فقد كان علماً على عصره، وبلغ شأواً واسعاً في تبحره في العلوم الإسلامية، فهو من القلة في زمانه ممن انتهى إليهم علم إسناده الحديث، ويعد في أهل الاجتهاد في الفقه كما وصفه ابن حزم الأندلسي، وله بسطة في علم التاريخ والأنساب، كما قال الذهبي، وكان في الأدب فارساً كما وصفه ابن سعيد الأندلسي، من هذه الشهادات تظهر لنا شخصية ابن عبد البر الموسوعية التي تناغمت فيها العلوم الشرعية مع العلوم التاريخية مع الأدب والشعر، ولعل هذا البحث سيكشف عن هذا التكامل بين هذه العلوم والترابط المتلازم؛ لأنها تنبع من عقيدة تنظم العلاقة بين الإنسان والكون والحياة، وتنطلق من مصدرية واحدة في منهج حياتها وهي الكتاب والسنة، وتستخدم كل المعارف الإنسانية المنسجمة مع هذا التصور والمنضبطة بضوابطه في تنمية المجتمع المسلم وحضارته.

وفي هذا البحث توفر تسليط الضوء على ترابط العلوم الإسلامية وتكاملها مع

الأدب بشقيه المنشور والمنظوم، وكان التأكيد على الجانب الشعري بصورة أكثر.

وقد قسم البحث إلى ثلاثة محاور:

المحور الأول: ابن عبد البر سيرة وتعريفاً.

المحور الثاني: ابن عبد البر نموذج للتكامل العلمي المعرفي.

المحور الثالث: أشعار ابن عبد البر أغراضها وخصائصها.

ويخلص هذا البحث إلى إبراز اهتمامات علمائنا المتنوعة وبروز أعلام موسوعيين في جوانب متنوعة من المعرفة فضلاً عن تخصص البعض في تخصص دقيق، ولكن شمولية الثقافة الإسلامية وترباطها وتكاملها بجميع تخصصاتها تميزها عن غيرها من الثقافات؛ لأنها تنطلق من مصدرية واحدة تضع للعلم غايته، وللوسائل ضوابطها، وتطلق للعالم المسلم حرية النظر في إطار المنهج الإسلامي ليلج بحور المعرفة ويشق مساره على هذا الهدى طلباً للحكمة والحقيقة؛ لأنه أحق بها كما يقول رسول الله ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن فهو أحق بها من أي إناء خرجت»<sup>(١)</sup>، وقد عبر ابن عباس عن مضمون الحديث الشريف بعبارته الراقية: «العلم أكثر أن يحصى فخذوا أرواحه ودعوا ظروفه».

وقد تناول الباحثون ابن عبد البر في دراساتهم من جوانب متعددة وكتبت رسائل جامعية فيها أهمها:

- ١- ابن عبد البر القرطبي وأثره في الحديث والفقه: إسماعيل الندوي (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م)، رسالة ماجستير قدمت في قسم الحديث الشريف في كلية دار العلوم جامعة القاهرة.

(١) ورد هذا في حديث ضعيف وإنما صح من قول: السلف رضوان الله عليهم. [المجلة].

٢- ابن عبد البر محدثاً: قدمها الطاهر بن الصادق الأنصاري، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى (١٣٩٧هـ-١٩٧٧م).

٣- مدرسة الحديث في الأندلس وإمامها ابن عبد البر: رسالة دكتوراه قدمها د. صالح أحمد رضا في قسم الحديث بجامعة الأزهر (١٣٩٠هـ-١٩٧٠م).

٤- ابن عبد البر مؤرخاً: رسالة ماجستير إعداد ليث سعود جاسم، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، (١٤٠٤هـ-١٩٨٤م).

٥- الفكر التربوي في الأندلس بين ابن حزم وابن عبد البر: لعبد العزيز الخولي، رسالة ماجستير بجامعة الأزهر، كلية التربية، (١٣٩٨هـ-١٩٧٨م).

ومن المحدثين الذين سلطوا الضوء الكاشف على شعر ابن عبد البر الدكتور منجد مصطفى بهجت أستاذ الأدب الأندلسي بجامعة الموصل في العراق كما ذكرنا في موضع سابق، وجعل ابن عبد البر أحد أركان الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي، وبسط آراءه في الأدب والشعر في رسالته «الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي الطوائف والمرابطين».

ورأيت أن أتناول هذا العلم الثبت من جانبه الأدبي متخذاً إياه نموذجاً للثقافة الموسوعية المتكاملة التي يتناظر بنائها الثقافي في كل العلوم.

وحسبي أنني حاولت تغطية الجانب الأدبي في هذه الشخصية الفذة، وأظن أنه لم يطره أحد بهذا المنحى بحسب علمي، وإنني وإن كنت متقهماً على أهل الأدب فلعلني بذلك أثرت وحفزت من يدرس هذا الجانب دراسة أكاديمية متأنية في رسالة جامعية لإظهار موسوعية علمائنا وتكامل العلوم عندهم.

## المحور الأول

### ابن عبد البر: سيرة وتعريف

هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي الأندلسي، المكنى بأبي عمر واشتهر بها، والملقب بجمال الدين واشتهر بلقب آخر وهو حافظ المغرب أو بخاري المغرب<sup>(١)</sup>.

ينتسب إلى قبيلة النَّمِر بن قاسط (بفتح النون وكسر الميم) ونسب لقرطبة لولادته فيها، واستقرار أسرته فيها، ونسب للأندلس لكونه من أهلها، فقد درج العلماء على تلقيب العلماء ببلدانهم التي يستقرون فيها بل وألقوا في ذلك المؤلفات. وترجمت له مصادر التراجم الأندلسية، وكتب «الأنساب»<sup>(٢)</sup>، «والحفاظ»<sup>(٣)</sup>، «والفقه»<sup>(٤)</sup>، ومصادر سير الشعراء كذلك<sup>(٥)</sup>.

### بكور العمر والنشأة:

(١) انظر ابن بشكوال خلف بن مسعود (ت ٧٨٠) الصلة، نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، (١٩٦٦-١٣٨٧م).

(٢) انظر ابن حزم، علي بن محمد (ت ٥٥٦هـ) جهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، نشر دار المعارف، القاهرة/ (١٣٨٢-١٩٦٢م) ط/١: (٣٠٢).

(٣) انظر ابن الصلاح الشهرزوري (ت ٦٤٢هـ) في كتابه «المقدمة في علوم الحديث» (ص ٣٤٩)، والحافظ جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) في طبقات الحفاظ (ص ٤٣٢)، والذهبي محمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) «سير أعلام النبلاء»، تحقيق شعيب الأرنؤوط، نشر دار الرسالة، بيروت، ط/١.

(٤) ابن حزم في رسالته: أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم على مراتبهم ملحقة بكتاب «جوامع السيرة لابن حزم، تحقيق ناصر الدين الأسد، نشر دار المعارف بالقاهرة، و«شجرة النور الزكية في تراجم المالكية» (ص ٥٢).

(٥) انظر «الفتح بن خاقان»، (مطمح الأنفس ومسرح التأنس)، نشر مطبعة السعادة، القاهرة، (١٣٢٥هـ-١٩١٧م).

ولد أبو عمر بن عبد البر النمري يوم الجمعة الخامس من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وثلاثمائة من الهجرة النبوية الموافق (٩٧٨م)، ومن علامات التوفيق أنه ولد والخطيب يخطب الجمعة مما جعل والده يعتز بهذه المناسبة فيعجل بتدوينها ليقدم لنا بذلك توثيقاً لتاريخ ولادة ابنه، وقد حفظ لنا أبو عمر ذلك التدوين، ونقله عن أبي عمر أثبت تلاميذه في النقل عنه وهو طاهر بن مفلح (٢٧٤هـ - ٤٨٤هـ = ١٠٣٥ - ١٠٩١م)، وقد لازم طاهر شيخه ابن عبد البر سني حياته الأخيرة حتى وفاته، لذلك فقد أراه أبو عمر ذلك التدوين اختصاصاً منه له حيث قال طاهر: «أرانيه الشيخ بخط أبيه».

ونشأ أبو عمر بن عبد البر النمري في أحضان أسرة عميدها جد أبي عمر وهو: محمد بن عبد البر بن عاصم النمري (ت ٣٧٩هـ - ٩٩٠م)، وكان معروفاً بالزهد والاشتغال بعلوم التفسير والحديث، وقد أدرك أبو عمر جده محمد ولعله قبس منه حب العلم والزهد.<sup>(١)</sup>

وأما والد ابن عبد البر: عبد الله بن محمد (ت ٣٨٠هـ = ٩٩١م) فقد كان من العلماء الذين عرفوا بعلمهم وكان الحاكم المستنصر قد جعله ضمن مستشاريه من أهل الحل والعقد.<sup>(٢)</sup>

وبالتالي فأبو عمر بن عبد البر النمري ورث العلم والشرف عن جده ووالده، وكان يروي وجادة<sup>(٣)</sup> عن أبيه بعد أن تدرج في مراحل التعليم المختلفة التي تعارف

(١) انظر ابن الأبار، التكملة: ٣٧١/١، وانظر ابن الفرضي، (التاريخ الأندلسي): (١٩٠-١٩١).

(٢) الحميدي، محمد بن أبي نصر (ت ٤٨٨هـ)، «جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس»: (٢٥٦)، نشر الدار المصرية، القاهرة، (١٣٨١هـ - ١٩٦٦م)، وانظر القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ)، (ترتيب المدارك): (٥٥٦/٤)، تحقيق أحمد بكير محمود، بيروت، (١٣٨٤هـ - ١٩٦٩م).

(٣) الوجادة: طريقة من طرق الرواية والتحمل يميز فيها الشيخ لمن يملك كتابه أن يروي عنه من كتابه.

عليها أهل الأندلس ابتداء بمكاتب المعلمين في دورهم، أو في المدارس الملحقة بالمساجد، وانتهاء بمجالس العلماء في دورهم، ودكاكينهم، أو في المسجد، وكان المسجد هو البيئة الثرية لتلقي العلم، فكان ابن عبد البر يتنقل بين أحياء قرطبة وأرباضها للأخذ عن علماء عصره في قرطبة من الأندلسيين أو المشاركة القادمين إلى الأندلس<sup>(١)</sup>.

ومن مشاهير شيوخه الأندلسيين الذين أثروا في مساره الخلقي والعملي «فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسومها»<sup>(٢)</sup>.

(أحمد بن عبد الله الباجي (ت ٣٩٦هـ = ٩٩٦م) ولازمه ابن عبد البر وقال: «لم أرَ بقرطبة ولا غيرها من الأندلس رجلاً يقاس به بأصول الدين وفروعه، كما كان يذاكر بالفقه، ويذاكر بالحديث ورجاله» (وروى عنه كتباً كثيرة من أمهات المصادر في هذه العلوم)<sup>(٣)</sup>.

(أحمد بن عبد الملك الإشبيلي المعروف بابن المكوي (ت ٤٠١هـ = ١٠٠١م) كان يتجر بالقماش ويدرس في متجره، وكان صاحب زهد وشجاعة في الحق مع تبخره في العلم.

يقول عنه ابن عبد البر: «كان أفضل من رأيت وأفقههم وأصحهم علماً»<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي: (٣/١٢٥٠)، نشر دار نهضة مصر، (١٤٠١هـ -

١٩٨١م)، ط/٢. وانظر المقرئ، «نفع الطيب»: (٥٠-١٤٩)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر بيروت، (١٩٦٨-١٣٨٨م).

(٢) ابن خلدون، المقدمة: (٣/١٣٥٥).

(٣) الحميدي، «جدوة المقتبس»: (١٢٨-١٢٩)، ابن بشكوال: (ص ١٢)، ابن خير، «الفهرسة»: (١٣٣)، ١٤٠، ١٤١، ٢١١.

(٤) ابن بشكوال، «الصلة»: (ص ٢٢-٢٤)، «ترتيب المدارك»، القاضي عياض: (٤/٦٣٦)، ابن عبد البر،

( ومن أعلام عصره كذلك الذين تلقى عليهم العلم ولازمهم: ابن الفرضي عبد الله بن محمد الأزدي (ت ٤٠٣هـ) وكان شاعراً ومن رواة الشعر، وعبد الوارث بن سفيان (ت ٣٩٥هـ) وروى عنه كثيراً من كتب اللغة.

ومن شيوخه عبد الوارث بن شعبان (ت ٣٩٥هـ) روى عنه كثير من كتب اللغة. وقد أحصيت له مائة وعشرة من الشيوخ الأندلسيين وغيرهم ومنهم من أخذ عنه مشافهة وبعضهم مكاتبة<sup>(١)</sup>.

### خريف العمر ووفاة ابن عبد البر:

درج ابن عبد البر في مسالك الحياة حتى بلغ الغاية في العلم والشرف في الرتبة وصار علماً على الأندلس في عصره بعد رحلة طويلة عانى فيها الترحال بسبب اختلاف الأحوال في الأندلس بعد الفتنة التي وقعت في قرطبة، فقضى رداً من الزمن متنقلاً بين دويلات الطوائف نشراً للعلم، وبحثاً عن المكان المناسب مع السعي في رأب الصدع والدعوة إلى لم الشمل والوحدة بعد الفرقة، وقد رحل من قرطبة إلى إشبيلية (٤٠٣هـ)، ومنها إلى دانية حوالي سنة (٤٣٠هـ) ثم كرّ راجعاً إلى غرب الأندلس إلى بطليوس سنة (٤٣٧هـ) أو بعدها بقليل، ثم فارقها إلى الشرق مرة أخرى ليحل في مروج بلنسية، ووصلها قبيل سنة (٤٤٤هـ) وكان يتردد بين بلنسية وشاطبة، واستقر في نهاية المطاف في شاطبة (سنة ٤٥٣هـ) التي صارت مقصداً

((الاستذكار)): (١٢٤/٢)، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، تحقيق علي النجدي ناصف (١٩٧١-١٣٩١م).

(١) ليث سعود، ابن عبد البر وجهوده في التاريخ، ملحق (٣) شيوخ ابن عبد البر: (٤٩٥-٥٠٧)، والمكاتبة: هي الإجازة بالمراسلة حيث يكتب العالم إلى طالب الإجازة مجيزاً له رواية كتبه أو مروياته وهي من طرق التحمل عند المحدثين.



لطلاب العلم، وكان يستقبلهم في بستانه المعروف باسمه في شاطبة والذي صار بعد ذلك مقبرة للعلماء، وبذلك غربت شمس من شمس العلم والمعرفة في الأندلس حينما غيَّب ابن عبد البر تراب شاطبة يوم الجمعة من شهر ربيع الآخر (٤٦٣هـ).<sup>(١)</sup>

## آثاره ومؤلفاته:

وقد ترك لنا ابن عبد البر النمري ثروة عظيمة من المؤلفات التي كانت «تيجاناً على رؤوس العظماء وأسوة العلم والعلماء»<sup>(٢)</sup> كما يقول ابن بسام، فقد كان أبو عمر «موفقاً في التأليف معاناً عليه»<sup>(٣)</sup> مما حدا بابن حزم - تلميذه وصاحبه - أن يقول عن مؤلفات أبي عمر بن عبد البر بأنها «لا مثيل لها...»<sup>(٤)</sup>، ويقول ابن سعيد في المغرب: «انظر إلى آثاره تغنيك عن أخباره»<sup>(٥)</sup>.

وقد أثنى المحدث أبو طاهر السلفي على مؤلفات ابن عبد البر بقوله<sup>(٦)</sup>:

(١) انظر ليث سعود جاسم، ابن عبد البر وجهوده في التاريخ: (ص ١٦٥-١٧٧)، نشر دار الوفاء، مصر، ط/١، (١٤٠٧هـ)، وانظر أبو عمر بن عبد البر، «بهجة المجالس»: (١/١٠٥، ٢٤٢، ٣٩١)، و(فهرسة ابن خير الإشبيلي): (ص ٧٧، ٨٨، ١٠٢، ١٠٩)، تحقيق كوديرا، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، (١٣٨٢هـ-١٩٦٢م)، ط/١، وانظر ابن الأبار، «التكملة»، (١/١٤٠، ٢٩٨، ٢/٦٩٢، ٩٢٩).

(٢) ابن بسام، «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، تحقيق إحسان عباس.

(٣) الذهبي، «سير أعلام النبلاء» وانظر «الأنفاس لابن خاقان»: (ص ٦٢).

(٤) المقرئ، «نفع الطيب»: (٣/١٦٩-١٧٠)، في «رسالة فضل الأندلس» لابن حزم.

(٥) أحمد بن سعيد المقرئ، «المغرب في حلي المغرب»، تحقيق شوقي ضيف، نشر دار المعارف بمصر (١٣٨٤هـ-١٩٦٤م)، ط/٢، (ص ٤٠٧).

(٦) مقدمة الاستذكار: مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق (برقم ٧١) الورقة ١٨٢ وقد رحل السلفي إلى الإسكندرية في طريقه إلى الأندلس للقاء تلاميذ ابن عبد البر وأخذ مؤلفات ابن عبد البر عنهم ولكنه بقي في الإسكندرية وروى عن لقيه منهم.

«وبالجملة فالرجل جليل القدر واسع العلم، وكتبه متعددة كثيرة، وقد قلت فيه لحسنها وكثرة فوائدها:

يا من يسافر في الحديث مشرقاً ومغرباً في البحر والبر  
ما أن يرى أبداً لكتب صاغها بالغرب حافظها ابن عبد البر  
وعليه فقد برع أبو عمر في التأليف كمّاً ونوعاً، وقد أحصيت له من مؤلفاته  
تسعاً وخمسين عنواناً في مختلف العلوم وهي كالاتي<sup>(١)</sup>:

أولاً: في علم القراءات أربعة مؤلفات.

ثانياً: في علم الحديث الشريف تسعة عشر مؤلفاً، أربع منها مطبوع، وواحد منها  
مخطوط، والباقي في حكم المفقود.

ثالثاً: في الفقه وما يتعلق به خمسة كتب: اثنان منها مطبوعان، وواحد مخطوط  
والباقي في حكم المفقود.

رابعاً: التاريخ وما يتعلق به: تسعة عشر كتاباً: ست منها مطبوع واثنان  
مخطوطان، والباقي في حكم المفقود.

خامساً: في الأدب والثقافة الإسلامية: اثنا عشر كتاباً: ثلاثة منها مطبوعه،  
 وخمسة مخطوطة، وأربعة منها في حكم المفقود.

ومن خلال النظر في هذا الإحصاء تبين لنا شخصية أبي عمر بن عبد البر  
النمري الموسوعية ذات الثقافة الشمولية.

ومن أشهر المؤلفات التي عرف بها أبو عمر بن عبد البر:

(١) انظر د. ليث سعود: المصدر السابق: (١٩٩-٢٣٤).

١- كتاب «الإستيعاب في معرفة الأصحاب في تراجم الصحابة»، آخر تحقيق له تحقيق الأستاذ عليّ البجاوي في أربعة مجلدات، طبع مكتبة النهضة، مصر (١٣٨٠هـ-١٩٦٠م)، ط ١.

٢- كتاب «التمهيد في شرح المعاني والأسانيد»، وهو شرح مهم جداً في علم الحديث طبعته وزارة الأوقاف المغربية، (١٩٨٧هـ-١٤٠١هـ=١٩٦٧م-١٩٨١م)، ط ١.

٣- كتاب «الكافي في فقه أهل المدينة»، تحقيق د. محمد ولد ماديك، مكتبة الرياض الحديثة، المملكة العربية السعودية، (١٣٩٨هـ-١٩٧٨م)، ط ١.

٤- كتاب «الإستذكار في شرح مذاهب علماء الأمصار مما رسمه مالك في موطنه من الرأي والآثار»، تحقيق الدكتور عليّ النجدي ناصف، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- القاهرة، (١٣٩١هـ-١٩٧١م)، ط ١.

٥- كتاب (بهجة المجالس في الأدب) تحقيق د. مرسي الخولي، مراجعة الدكتور عبد القادر القط، نشر الدار المصرية للتأليف (١٣٨٢هـ-١٩٧١م) ط ١، والطبعة الثانية عشر نشر دار الفكر- بيروت (١٤٠١هـ-١٩٨١م).

٦- كتاب «جامع بيان العلم وفضله في التربية وآداب التعلم»، تحقيق د. عبد الرحمن عثمان، نشر المطبعة السلفية بالمدينة المنورة (١٣٨٨هـ-١٩٦٨م)، والطبعة الأولى نشر المطبعة المنيرية- مصر (بدون تاريخ).

وغيرها من الكتب.

## المحور الثاني

### ابن عبد البر الأديب التكاملي

#### اللغة مرآة للنفس والمجتمع :

اللغة هي آلة العلم والتعبير عن الأفكار والمصطلحات، وفي الوقت نفسه هي الإطار الذي يعبر فيه الإنسان عن عواطفه وأحاسيسه المتنوعة تنوع الأحوال التي يمر بها الفرد، ومدى تأثيرها عليه، وبالتالي فاللغة تكون متنفساً للتعبير عن المعاناة التي يعانيها الإنسان في رحلة حياته، وإذا وهب هذا الإنسان مواهب خاصة في تنوع أساليب التعبير كان أقدر على التعبير عن الحدث بأسلوب موح ومؤثر في السامع.

ومن أساليب التعبير عن المعاناة النفسية للفرد والمجتمع الأدب بفنونه، وبخاصة الشعر ببحوره وقوافيه التي تحمل زخم الأحاسيس وتدافعها، والعواطف وتفجرها، إلى شاطئ الراحة والإطمئنان بعد المعاناة والحرمان، فتؤثر هذه الصور المتنوعة التي تحمل هذه الأحاسيس والعواطف الجياشة في السامع فيحصل التأثير المتبادل والمشاركة الوجدانية بين القائل والمستقبل.

وللبينة أثرها كذلك في إثارة هذه الأحاسيس والعواطف وإنضاج أسلوب التعبير عنها بأسلوب موح ومؤثر، فتكون الكلمات مركباً يشق عباب بحور المعاني لتحقيق الأماني من خلال الأدب بجناحيه المنظوم والمنثور، ولما كانت بيئة الأندلس بيئة علم يثقف الفكر، وكانت بيئة لغة عربية ناضجة سمت فأكسبت المتحدثين بها قدرة على التعبير عن أدق المعاني وأرهف الأحاسيس وحسبنا مثلاً في ذلك أهل مدينة (شلب) الأندلسية التي كان أهلها يتطارحون الشعر سليقة لا تكلفاً، فالفلاحون في حقولهم،

والباعة في دكاكينهم، والتجار في أسواقهم كانوا يتحاورون عن أي الشعراء أشعر: البحري أو أبو تمام؟ و«قل أن ترى من أهلها- أي مدينة شلب- من لا يقول شعراً ولا يعاني الأدب، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه، وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه، وأي معنى طلبت منه»<sup>(١)</sup>.

ولقد كان للعلماء الحظ الأوفر في قول الشعر سليقة أو صناعة؛ لأنهم يملكون آلة التعبير وهي اللغة العالية، ولا غرابة في ذلك إذ إن طريقة التعليم في الأندلس كانت تبدأ بتحفيظ الطفل القصائد والمقطوعات الشعرية لتنمي ملكته اللغوية، وأدى ذلك إلى تفتيق المواهب المتنوعة وأخصها موهبة قول الشعر؛ لأن هذه الطريقة التعليمية تكسب المتعلم كمّاً من المفردات اللغوية المتنوعة وبخاصة في هذه المرحلة من العمر التي تكون فيها القدرة على الحفظ نشطة، فضلاً عن أنها تعينه على محاكاة الشعراء في نظمهم.

وفي ضوء هذه المعاني سندرج في هذا البحث مع علم من أعلام الأندلس الموسوعيين الذي عاش حياته متعلماً وعالماً ومؤلفاً ولم يتوقف عطاؤه على الرغم من الحن العامة والخاصة، فقد عاش متنقلاً في غرب الأندلس وشرقها متجولاً بين مدنها ودويلاتها معتزاً بعلمه محترماً لفضله، ساع بين حكام الدويلات للإصلاح، أثارته فيه المعاناة المتنوعة أشعاراً متنوعة الأغراض، وأدباً ثراً دمجته يراع ابن عبد البر رحمه الله.

(١) «معجم البلدان»، (ياقوت الحموي): (٣/٣٥٧-٣٥٨)، طبعة دار التراث العربي. بيروت (١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م)، الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز محمد عيسى (١٠٩)، وانظر «الإتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي»، للدكتور منجد مصطفى بهجت: (٣٨)، طبعة مؤسسة الرسالة- بيروت.

## مظاهر ثقافة ابن عبد البر التكاملية في الأدب:

على ضوء ما تقدم تبين لنا أصالة المنهج الذي اختطه الأندلسيون في مناهجهم التعليمية في المراحل الأولى والعليا، ولذلك برع أبو عمر بن عبد البر في أنماط عدة، وكانت له رؤيته الأدبية الجادة الملتزمة، والتي وصفها ابن خاقان بقوله: «وأما أدبه فلا تعبر لجنته ولا تدحض حجته، وله شعر لم أجد منه إلا ما نفث فيه عن أنفة، وأوصى فيه عن معرفة»<sup>(١)</sup>، وأما ابن سعيد فقد جعله: في الأدب فارساً<sup>(٢)</sup>، متبعاً في ذلك كله منهجاً يوظف فيه مناهج العلوم الإسلامية في عملية تكاملية مع المنهجية الأدبية نظاماً ونثراً.

ولكي يتضح مفهوم النموذج في التكامل المعرفي نقول بأن مفهوم التكامل:

هو عملية إنشاء معرفي حضاري تنطلق من المرجعية الإسلامية والتصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان تتوحد فيها الرؤية الحضارية بعيداً عن الانفصام الفكري والمعرفي الغربي في جانبه التنظيري.

وعليه فالنموذج التكاملي: هو الذي ينطلق من هذه المرجعية الإسلامية والتصور الشامل ليتناغم عنده التصور العقيدي مع التخصص العلمي المعرفي. وبالتالي تترابط جميع المعارف في إطارها المتكامل.

## أولاً - التزامه في الأدب:

وعلى ضوء ذلك فإن أبا عمر بن عبد البر كان صاحب عقيدة ورسالة يقف عند

(١) الفتح بن خاقان، «مطمح الأنفس»: (٧٠)، أبو عمر ابن عبد البر، «الإهتبال»، (ورقة ١٢) مخطوط بمعهد

المخطوطات بالقاهرة رقم (١٠٣٦ أدب)

(٢) ابن سعيد، المغرب: (٤٠٨/٢).

حدودها ويوظف لها الأدب بعامة والشعر بخاصة، فلذلك نجد أن ابن عبد البر اهتم بالجانب الخلفي والتربوي، وأقدم على انتقاء الحكم والأمثال من أشعار أبي العتاهية؛ «لأنها تعين أهل الدين على التقوى، وتبعثهم على الزهد في الدنيا، وتذكرهم في أمر الموت وما بعده، ما فيه تذكرة وموعظة باللغة عسى أن تلين بها القلوب القاسية»<sup>(١)</sup>.

وأما الأدب على عموميه فيبحث ابن عبد البر على مطالعته: «لأن المسلم سواء كان طالباً، أو عالماً، أو غيره يحتاج إلى مطالعة فنون الآداب، وما اشتملت عليه وجوه الصواب من أنواع الحكم التي تجلي النفس والقلب، وتشحذ الذهن والقلب، وتبعث على المكارم، وتنهى عن الدنيا والمخارم»<sup>(٢)</sup>.

وكان هذا الهدف واضحاً في أعماله الأدبية: «فلذلك تجد أبا عمر بن عبد البر يميل إلى العبارات المهذبة والألفاظ التي لا تجرح الحياء»<sup>(٣)</sup>، كما يقول الدكتور محمد مرسي الخولي رحمه الله محقق كتاب «بهجة المجالس».

فضلاً عن أنه كان لا يذكر الأخبار التي تروج للجاهلية أو تثني عليها، أو تتضمن أخبار غير لائقة فيحذفها معلقاً بقوله: «وله أخبار... من نحو هذا لم أذكرها»<sup>(٤)</sup>.

أو يعرض لبعض أبيات الشعر ويعلق عليها بقوله: «هذه الأبيات تركت ذكرها

(١) أبو عمر ابن عبد البر، ((الإهتبال))، (ورقة ١٢). مخطوط بمعهد المخطوطات بالقاهرة رقم (١٠٣٦ أدب).

(٢) أبو عمر بن عبد البر، ((مقدمة بهجة المجالس)): (٣٥/١).

(٣) المصدر نفسه: (٣٠/١).

(٤) أبو عمر، ((الإستيعاب)) (١٩٧٩/٤)، طبعة البجاوي.

لما فيها من الفخر بالجاهلية»<sup>(١)</sup>.

أو نقده للشعر عندما يرى انحرافاً في المفاهيم الإسلامية عند بعض الشعراء. من ذلك نقده للممتني في مدح الظلم:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم

فيعلق عليه بقوله: «وهذه من أخلاق الفساق ومن لم يتأدب بأدب القرآن، ولا استن بسنن الإسلام في الأخذ بالعفو والصفح والرحمة والرفقة»<sup>(٢)</sup>.

### ثانياً: الشعر وسيلة للترباط المعرفي بين العلوم:

وقد كان أبو عمر بن عبد البر النمري يحفظ كمّاً هائلاً من الأشعار ولا عجب في ذلك إذ إن التأسيس الأوّلي لطالب العلم الأندلسي يؤكد على تقويم اللسان بحفظ الشعر في المراحل الأولى، فضلاً عن قوة حافظته تميز بها أبو عمر، وهمة عالية في استدراك عدم الإرتحال للمشرق بكثرة المحفوظات ومراسلة العلماء للحصول على الإجازات في المرويات والكتب، ويزين ذلك كله هدف تربوي من خلال إشاعة الشعر الموجّه في أوساط العامة والخاصة، فضلاً عن جعله وسيلة للترباط المعرفي بين العلوم الإسلامية والمعارف الأخرى وتكاملها من خلال الإستشهاد بالشعر لخدمة المعلومة الفقهية<sup>(٣)</sup>، أو الحديثية<sup>(٤)</sup>، أو التاريخية<sup>(٥)</sup>، مما يضفي على

(١) المصدر نفسه، (٢/٤٦٨).

(٢) بهجة المجالس ٣٦٦/١.

(٣) انظر أبو عمر بن عبد البر، ((الإستذكار لمذاهب علماء الأمصار)): (١/١٣١، ١٣٢، ١٧٧، ١٧٨،

١٩٠، ٢٨٠/٢، ٢٩٧، ٣٠٦).

(٤) انظر أبو عمر بن عبد البر، ((التمهيد)): (١/١٠٣، ١٠٧، ١٢٠/٢، ١٢٣، ٨٨/٣، ١٧٩، ٧/٤،

١٠٦، ١١٠).



ذلك نداوة في العبارة، وتحبباً للمادة المتخصصة إلى النفوس، وهذه سمة من سمات منهجية أبي عمر في التأليف ومرآة تعكس ثقافته الموسوعية التي كانت تستخدم مصادر الأمم الأخرى كالتوراة والإنجيل، وتراث الحكمة الفارسية والرومية وتوظيفها من خلال مؤلفاته الأدبية، وكتابه «بهجة المجالس» شاهد على ذلك.<sup>(١)</sup>

وكان من منهج ابن عبد البر استخدام الأدب وبخاصة الشعر أسلوباً لعرض المعلومة المعرفية منظمة شعراً في علم ما كعلم الحديث<sup>(٢)</sup>، والتراجم<sup>(٣)</sup>، والتاريخ<sup>(٤)</sup>، والفقه<sup>(٥)</sup>، والثقافة العامة<sup>(٦)</sup>.

(٥) أبو عمر، ((الدرر في المغازي والسير)): (١١٥، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٢، ٢١٢، ٢١٣، ٢٤٧) .. وانظر

((الإستيعاب في معرفة الأصحاب)): (٢٧٥/١، ٢٩٢، ٢٨٣، ٣٧٤، ٥٣٦، ٨١٣، ٨١٥ - ٩٧٦/٣،

١٠٥٠، ١١٣١/٤، ١٦٢٢، ١٦٧٢، ١٦٢٧، ١٨٢٩) ...، وانظر ((الإنباه على قبائل الرواق)):

(٥٩، ٦٠، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٨٠، ٨٧، ٨٩، ١٠٨) ... وانظر ((القصد والأمم في معرفة أنساب العرب

والمعجم)): (١٥، ١٩، ٢٥، ٢٧، ٣٣).

(١) (٧٧/١، ١١٥، ١٩٦، ٢٢٢، ٢٨٩، ٣٠٥، ٣١٢)، وانظر (٢/٤٤٠، ٤٤٦، ٤٥٢، ٥٣١،

٥٦٢، ٥٨٤، ٥٩١/٢، ٦٦٤، ٧٦٢، ٨١١).

(٢) لابن عبد البر منظومة في السنة، انظر ((المعجم))، لابن الأبار: (٣٢٠) طبعة مدريد (١٨٨٥م ومطلعها: تبارك من يحيى العظام وينشر.

(٣) انظر ((الإستيعاب في معرفة الأصحاب)): (٢٧٥/١، ٢٩٢، ٣٧٤، ٨١٣/٢، ٨١٥... ٩٧٦/٣،

١٠٥١ - ١٦٢٢/٤، ١١٢١ - ١١٢٢، ١٨٢٨) وانظر دفاعه عن حسان بن ثابت شاعر الرسول لرميه

بالجن ((الإستيعاب)): (٣٤٨/٣) وانظر ((الدرر)): (١٦٨).

(٤) انظر ((الدرر في المغازي والسير)): (١٨٠، ٢١٢، ٢٤٧) وانظر ((الإستيعاب)): (٩٦٥، ٩٦٤/٣).

(٥) ((الإستذكار)): (٩٩/١، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٦، ١٧٧ - ١٧٨، ٢٤١، ٢٤٢، ٢/١٠٠، ١٠١).

(٦) ابن عبد البر، ((جامع بيان العلم وفضله)): (٣٠/١، ٣١، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٦٨، ٨٢، ٩٢، ١٠٩،

١٢٥، ١٢٦، ١٣٩، ١٤٤، ١٧٠).

(٧/٢، ١٠، ٢٠، ٣٦، ٤٤، ٥٥، ٦٨، ٧٧، ٧٩، ٨٨، ٩٤، ٩٩، ١١٥، ١٣١، ١٧١، ٢٠١).

### ثالثاً: مرويّاته للشعر وتقدّها:

اتسم ابن عبد البر بقوة الحافظة، وقد زحرت كتبه بالروايات الشعرية للأندلسيين وغيرهم؛ ولأهمية ذلك في التكوين الثقافي للعالم المسلم، فيقول ابن عبد البر في بيان الهدف من حفظ ذلك كله أن: «الجيد من النظم لا يحصى كثرة وحسبنا أنا نأتي منه بما يقرب حفظه للمذاكرة، ويقوم ببهاء مورده في المجالسة»، وهذا يعني أنه كان حافظاً لأشعار وأخبار كثيرة ولكنه اقتصر في كتابه «بهجة المجالس» على ما يحقق هدف التذاكر والتواصي على الخير، وأن يكون زينة للمجالس الأدبية بين العامة أو الأقران، أو السلطان وخاصته.

ولذلك فأبو عمر يروي لنا شعر مشايخه الأندلسيين أمثال: حكم بن المنذر (ت ٢٠٤/٤٢٩م)<sup>(١)</sup>، وهارون بن موسى القيسي (ت ٤٠١هـ/١٠١٠م)<sup>(٢)</sup>، ويوسف بن هارون الرمادي (ت ٤٠٣هـ)<sup>(٣)</sup>، وخلف بن القاسم المعروف بابن الدباغ أو سهلون (ت ٣٩٣هـ/١٠٠٢م)<sup>(٤)</sup>، وعبد الله بن محمد بن يوسف المشهور بابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ/١٠١٢م)<sup>(٥)</sup>، وعبد الوارث بن سفيان (ت ٢٩٥هـ/١٠٠٤م)<sup>(٦)</sup>، وأحمد بن عمر ابن عصفور الحضرمي الإشبيلي

(١) ابن بشكوال: ((الصلة)): (١٨٤)، ((بهجة المجالس)): (٦٨٤/٢).

(٢) ابن بشكوال، ((الصلة)): (٦٥٦)، ((جامع بيان العلم)): (٨٣/١).

(٣) ابن بشكوال، ((الصلة)): (٦٧٤)، ((جامع بيان العلم)): (١٢٩/١)، ((المغرب)): (٣٩٢/١).

(٤) الحميدي، ((الجدوة)): (٢٠٥)، والقاضي عياض ((ترتيب المدارك)): (٧٥٩/٤)، ((وبهجة المجالس)): (١٤٦/١).

(٥) الحميدي، ((الجدوة)): (٢٥٤)، ابن بشكوال: (٢٥١)، ((بهجة المجالس)): (٣٨٠/١)، ((جامع بيان العلم)): (١٣٠/١)، (٢٠/٢)، ((الصلة)).

(٦) الحميدي، ((الجدوة)): (٢٩٥)، ابن بشكوال/ ((الصلة)): (٣٨٢).

(ت ١٠٩٠ هـ / ١٠٩٠ م)<sup>(١)</sup>، ومحمد بن خليفة<sup>(٢)</sup>، ومحمد بن نصر الرومي الكاتب<sup>(٣)</sup>، وغيرهم من علماء زمانه وقد زينت هذه الأسماء كتيبه وبخاصة «جامع بيان العلم» و«بهجة المجالس»، وكان يستعمل ألفاظاً متنوعة في الرواية مثل: «أنشدنيها فلان»<sup>(٤)</sup>، و«أنشدني بعض شيوخي»<sup>(٥)</sup>، و«أنشدني فلان»<sup>(٦)</sup>، و«أنشدنا لنفسه»<sup>(٧)</sup>، و«أنشدني غير واحد»<sup>(٨)</sup>، و«أنشدت لبعض المتقدمين»<sup>(٩)</sup>، و«أخبرني فلان»<sup>(١٠)</sup>، و«حدثني فلان»<sup>(١١)</sup>. واستعمل أبو عمر هذه المصطلحات يدل على دقة توثقه وتحريه في نقل الأشعار وإسنادها إلى قائلها مستخدماً ألفاظ التحمل في رواية الحديث فضلاً عن القياس عليها مثل قوله: «أنشدت»، «أنشدنا»، «أنشدني»، «أنشدنيها»، وهذا توظيف منه لثقافته الحديثية في الرواية الأدبية.

وقد تعرض أبو عمر بن عبد البر في كتيبه الأدبية لنقد مروياته من الأشعار والأخبار، مما يدل على تمكنه في رواية الشعر ودقة في النقل، وتحريه وتحقيقه،

(١) الحميدي، ((الجدوق))، (١٣٦)، ابن بشكوال: ((الصلة)): (٢٦)، «جامع بيان العلم»: (٢/١٢٥)، ١٢٧، ٤٦/١، ١٨٤.

(٢) ((الجدوق)): (٥٤)، و«جامع بيان العلم»: (٤٦/١).

(٣) ابن الأبار، ((التكملة)): (٣٧٨/١)، «بهجة المجالس»: (١٩٢/١)، ٣٥١، ٣٥٢.

(٤) «بهجة المجالس»: (٢٥٢/١).

(٥) «بهجة المجالس»: (٥/٢، ٣٨)، و«جامع بيان العلم»: (٦٨/١).

(٦) «بهجة المجالس»: (٦٢/١، ٧٩، ١٤٦، ١٩٢، ٢٠٦، ٢٤٨، ٢/٦٨٤)، «جامع بيان العلم»: (١٢٥/٢، ١٣٠، ٩٧، ٨٣/١).

(٧) «جامع بيان العلم»: (٤٩/١، ١٢٩، ١٨٤)، «بهجة المجالس»: (١٩٤/١، ٣٥١، ٣٨٠، ٢/٦٨٤).

(٨) «جامع بيان العلم»: (٨٦/١).

(٩) «جامع بيان العلم»: (٨٨/١، ١٦٠).

(١٠) «جامع بيان العلم»: (٧٥/١).

(١١) «جامع بيان العلم»: (٤٩/١، ٩٤/٢).

وتصحیح نسبة الأشعار إلى قائلها، فمثلاً: يستشهد بشعر لصالح بن جناح في قوله: <sup>(١)</sup>

قلل كلامك واستعد من شره إن البلاء ببعضه مقرون  
فيعلق عليه بقوله: وقد قيل هذا الشعر لصالح بن جناح والله أعلم، وهو أشبه  
بمذهب صالح وطبعه، وهذا يدل على مقدرة على التحليل النفسي للشخصية  
وتشخيصها من خلال الشعر المنسوب إليها.

أو قول ابن عبد البر فيها: مما ينسب إلى محمود الوراق وأظنها لغيره وهو عبد  
الرحمان العطوي <sup>(٢)</sup>، وهنا كذلك يستعمل نفس المقياس في نسبة الشعر.  
دع الرياء لمن لجّ الرياء به في الأمر بالبذل واذكر قلة العدم

### استخدامه النقد الداخلي والخارجي:

ونقده قصيدة الفرزدق <sup>(٣)</sup> التي مدح فيها عليّ بن الحسين في زمن هشام بن عبد  
الملك، فينتقد الروايات نقداً خارجياً وداخلياً يعتمد فيه على تخصصه التاريخي،  
فيرجح أنها في مدح محمد بن عليّ بن الحسين ويرجح رواية الفاكهي مؤرخ مكة  
على رواية الأديب أبي عليّ القالي وليس عليّ ابن الحسين ويقول (هي أصح  
عندي) <sup>(٤)</sup>؛ لأن عليّ بن الحسين مات سنة (٩٣هـ)، وهشام تولى الخلافة سنة

(١) أبو عمر بن عبد البر: ((جامع بيان العلم)): (١٨٣/١).

(٢) أبو عمر بن عبد البر: ((بهجة المجالس)): (٢٠٤/١).

(٣) نفس المصدر: (٥١٠-٥١٢) وانظر ((بهجة المجالس)): (١٧٦-١٧٧)، والأبيات التي نقلها  
الجاحظ للطهوي في أسطورة قتل الغول.

(٤) بهجة المجالس: ٥١٣/٢، وقيل هناك تصحيف في هذا النص إذ أن الذي في الحماسة هو الحزين بن عبيد  
الله الكتاني في مدح عبد الله ابن عبد الملك ورجح ذلك الخولي.

ولكن في رواية أبي الفرج الأصبهاني أن القصيدة قيلت في خلافة الوليد بن عبد الملك وهشام كان أميراً

(١٠٥هـ)، أو أن يكون الشعر للفرزدق ولكن ليس في مدح عليّ بن الحسين، وإنما في مدح محمد بن عليّ بن الحسين، لأن عليّ بن حسين مات سنة (٩٣هـ) ويمكن أن ينصرف المدح لمحمد أو لوالده عليّ بن الحسن. ولم يكن هشام خليفة يومها، ومطلع القصيدة:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم  
ثم يستبعد كون القصيدة قيلت في قثم بن العباس ويصف ذلك بقوله: (ليس بشيء) معتمداً على النقد الداخلي.

فيحكم على أن القصيدة لم تقل في قثم لأن القصيدة التي قيلت في قثم تتفق بالقفافية مع قصيدة الفرزدق وتحالفها في جانبها العروضي، وأن بعض الأبيات مضافة مفتعلة. وأورد بأن حبيب<sup>(١)</sup> قد نسب بعض أبياتها في الحماسة للحر بن عبد الله الليثي، وهذا تصحيف والصحيح الحزين<sup>(٢)</sup>.

وكذلك أشار ابن عبد البر إلى زيادات دخلت القصيدة نفسها حيث قال:

على الحج في ذلك الموسم لأن الرواية قد ورد فيها عبارة (أصلح الله الأمير) وعليه فهي للفرزدق في مدح علي بن الحسين وكانت في خلافة الوليد. أنظر الأغاني: ٣٢٩/١٥، طبعة دار إحياء التراث العربي المصورة عن طبعة دار الكتب (بدون تاريخ)، وانظر شرح ديوان الفرزدق، ذكر المحقق أن القصيدة قيلت في حضور هشام زمن والده عبد الملك: انظر شرح ديوان الفرزدق شرحه وضبطه وقدم له علي قاعور، نشر دار الكتب العلمية - بيروت (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) ط-١- ولكن يبدو أن ابن عبد البر لم ينقل رأي الأصفهاني لضعفه عنده وأن كتابه ليس مظنة الوثيق في الروايات التاريخية انظر السيف اليماني في نحر الأصفهاني، لوليد الأعظمي، نشر دار الوفاء - مصر (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، ط: ١: ٢٦٣.

(١) هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٣١هـ) والحماسة ديوانه المشهور. الموسوعة الثقافية، نشر مؤسسة فرانكلين للطباعة، (١٣٨٢هـ - ١٩٧٢م)، القاهرة، (ص ١٤)؛ وانظر د. مجاهد مصطفى بهجت، المكتبة الشعرية، في العصر العباسي، نشر دار البشير للنشر، الأردن (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)، ط: ١: ص (١٠٢).

(٢) وقد رجح الدكتور الخولي بأنه حصل تصحيف في ((بهجت المجالس)) من قبل النساخ لأن الموجود في الحماسة الحزين بن عبيد الكناي. انظر: ((بهجة المجالس))، هامش (٥١٢/٢). وناقش ذلك بتفصيل.

«وفيهما أبيات لم أذكرها لأنني أظنها مضافة مفتعلة»<sup>(١)</sup>.

وهذا يدل على حس نقدي، وقدرة على تمييز الكلام، وهذه الملكة لا تتأتى إلا لمن كان له معرفة بالشاعر الذي نسب إليه الشعر وهو الفرزدق، ومعرفة لطبيعة شعره، وخصائص نظمه وهي بالضرورة تعتمد على قوة حفظ أبي عمر بن عبد البر وإطلاعه الواسع على شعر الفرزدق، فلذلك عند تعليقه على رأي الزبير بن بكار الذي نسب القصيدة لقثم بن العباس قال: «فهذا غير ذلك وإن تشابهت القافية». وهذا يدل على قدرة ابن عبد البر العالية في نقد الشعر ومعرفة قائله من خلال طبيعة أشعارهم، وإن كانت البحور واحدة والقوافي واحدة ولكن تبقى بصمات الشاعر ولمساته وطبيعته تظهر من خلال أشعاره، التي هي جزء من شخصيته ولا يكشف ذلك إلا من برع في الصنعة وكان ماهراً في تحليل نفسية الشعراء وأهل الأخبار.

ومثال آخر على نقده للشعر ونسبته إلى قائله<sup>(٢)</sup>: اختلاف رواة الشعر والحديث في أبيات سمعها رسول الله من عائشة - رضي الله عنها - وتفرد ابن عبد البر في إبداء الرأي بناء على ثقافته الحديثية فقطع بنسبتها إلى الغريص بن السموأل بن

(١) نفس المصدر: (٥١٢/٢)، وذكر الأصفهاني أن القصيدة متداخلة مع قصيدة الحزين الكناني وهو أبو الحكم عمرو بن عبيد الله الليثي في مدح عبد الله بن عبد الملك بن مروان، وهي بنفس القافية، انظر الأغاني: (٣٢٤/١٥-٣٢٥)، وناقش هذا الأمر كذلك الدكتور حسين محمد نقشة في تحقيقه لشرح ديوان حماسة أبي تمام والنسوب لأبي العلاء المعري فمن خلال النسخ المتعددة يظهر أن أكثر مؤرخي الأدب قد نسب الأبيات للفرزدق (٥٢١١) وذكر ثمانية أبيات ثم قام المحقق بتخريج الأبيات وحققها بدقة واستخدم لذلك مصادر عدة وبين بأن البيتين (٧، ٨) هي للحزين الكناني الليثي وباقي الأبيات من (٦-١) للفرزدق وأما ابن عبد البر فقد ذكر لنا ثمانية عشرة بيتاً وأشار أن بعضها ورد في الحماسة لحبيب بن أوس أبي تمام، انظر: أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، شرح ديوان الحماسة، دراسة وتحقيق الدكتور حسين محمد نقشة، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، (١٤١١-١٩٩١م): (١٠٨٤-١٠٨٨).

(٢) انظر «بهجة المجالس»: (٣١٠-٣١١).

عادياء اليهودي، وقد وردت فيها روايتان:

والرواية الأولى هي: «سمع رسول الله ﷺ عائشة - رضي الله عنها - تنشد لليهودي:

ارفع ضعيفك لا يجربك ضعفه يوماً فتدركه العواقب قد نما  
يجزيك أو يثني عليك وإن من أثنى عليك بما فعلت فقد جزى  
فقال رسول الله ﷺ: «قاتله الله ما أحسن ما قال، من لم يجد إلا الدعاء والثناء  
فقد كافاً».

والرواية الثانية: عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال لي رسول الله ﷺ:  
أنشدي شعر الغريض اليهودي حيث قال: إن الكريم... فأنشدته:

إن الكريم إذا أراد وصالنا لم يلف حلي وهياً رث القوى  
أجزيه أو أثني عليه فإن من أثنى عليك بما فعلت فقد جزى  
وتعقب ابن عبد البر الروایتين من خلال ثقافته الموسوعية في التعليق مما يدل على  
الترابط بين العلوم الشرعية من جانب والأدب وعلم التاريخ من جانب آخر في  
ثقافة ابن عبد البر.

ثم حكم ابن عبد البر على الرواية بمنهج المحدثين فقال: «وهذا الشعر لا يصح  
فيه إلا ما روي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة»<sup>(١)</sup>.

وصحح نسبته إلى الغريض بن السموأل بن عادياء من هذا الطريق. فقال: «وأما  
أهل الأخبار فاختلفوا في قائله: ف قيل: هو لورقة بن نوفل، وقيل: هو لزبير بن جناد

(١) (بهجة المجالس): (١/٣١١).

الكلبي، وقيل: لعامر بن الجنون، وقيل: ليزيد بن عمرو بن نفيل: ومنهم من قال: إنه ليزيد بن عمرو أو ورقة بن نوفل البيتان الأولان<sup>(١)</sup> أي في الرواية الأولى.

وأردف ابن عبد البر قائلاً<sup>(٢)</sup>: والصحيح فيها وفي الأبيات غيرها أنهما للغريص اليهودي.

ومما يدل على ثقافته الأدبية كذلك: باعه في معرفة الشعر كلامه في بيان التضمينات بأنواعها، وتناقلها بين الشعراء، من ذلك تعليقه على بيت لأبي سليمان الشاشي كتبه إلى الصولي ردّاً على اعتذار أبي بكر الصولي من قضاء حاجة له، والبيت هو<sup>(٣)</sup>:

سكنت نفسي لـا الـ تفّ جلي بـجـلـك

فيقول أبو عمر بن عبد البر معلقاً: وهذا عندي مأخوذ من قول أبي العتاهية:

ليس ذا الشغل عاذر لك إنما ترتجى إذ كان شغل

#### رابعاً - مؤلفاته الأدبية:

ومن مظاهر شخصية ابن عبد البر الأديب مؤلفاته الأدبية فقد خاض ابن عبد البر غمار التأليف في هذا الفن وقد أثنى أهل التراجم عليه في هذا الجانب كما ورد ذلك من قبل.

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) ((بهجة المجالس)): (٢/٤٨٩).



## حلقة بين مدرستين:

وكان ابن عبد البر في مؤلفاته الأدبية يمثل مرحلة الانتقال من التقليد إلى تميّز المدرسة الأندلسية، وهو عصر التآلق الأدبي، عصر جهابذة الأعلام الأندلسيين وعمالقته الذين ازدهر الأدب الأندلسي في نتاجاتهم المتنوعة المتميزة، الخصبة المغدقة، حتى قرر عدد من الدارسين أن الحياة الأدبية في هذا العصر كانت أزهى وأزهر منها في كل عصر آخر من عصور العرب في عصر الأندلس<sup>(١)</sup>.

ودرج ابن عبد البر في مؤلفاته الأدبية على أن يجمع بين الأدب المشرقي والمغربى في عقد واحد انطلاقاً من مفهوم وحدة الأمة، فنجد كتابه «بهجة المجالس» يكرّس هذا المفهوم.

وبالتالي فهو ضمن مدرسة بين مدرستين: الأولى يمثلها الأديب أبو عليّ القالي البغدادي (ت ٣٥٦هـ) الذي كان كتابه «الأمالى» النواة التي بذرها فأثمرت أدباء متميزين، وأدباءً ناضجاً يقبس من مشكاة العربية، وأدباء ينهلون من نتاج الشرق الإسلامي الأدبي.

وأما المدرسة الأخرى فهي المدرسة التي تعنى بالأدب الأندلسي تدويناً ونشراً، وعلى رأس هذه المدرسة الفتح بن خاقان (ت ٥٢٨هـ)، وابن بسام الشنترقي (ت ٥٤٢هـ) في موسوعته «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، وابن سعيد عليّ بن موسى الأندلسي (ت ٦٧٢هـ) في كتابه «المغرب في حلى المغرب»، والمقرّي (١٠٤١هـ) في «نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب»<sup>(٢)</sup>.

(١) د. منجد مصطفى بهجت، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، نشر دار الكتب بجامعة الموصل، (١٤٠٨-١٩٨٨م): (ص ١١٧).

(٢) آثار ابن عبد البر القرطبي، محمد طهور الحق، مجلة البعث الإسلامي المجلد ٢٢ العدد ٢ (شوال ١٣٩٧هـ-١٩٩٧م): ٤٧.

## أهم المؤلفات الأدبية لأبي عمر بن عبد البر:

بعد أن تبينت لنا مكانة ابن عبد البر الأدبية وثناء العلماء عليه سيلقي البحث الضوء على المؤلفات الأدبية التي ألفها ابن عبد البر، سواء المطبوع منها أو المخطوط، أو ما هو في عداد المفقود، وذلك من خلال محاولة استقصائها من مختلف المصادر.

### الكتب المطبوعة:

١ - «بهجة المجالس وأنس المجالس وشحد الذاهن والهاجس»، وهو سفر ضخيم اشتهر به أبو عمر بن عبد البر، وتجمّست من خلاله ملكته الأدبية الأصيلة، وقد ضمّ مادة أدبية متنوعة جمعت بين بلاغة القرآن والحديث، وعيون الآثار عن الصحابة والتابعين، وجواهر الحكم من كل لون ومن كل وعاء، فجمع حكمة الفرس والروم والعرب واليهود والنصارى والمجوس والهنود، وزيّن بمحفوظاته من الشعر المشرقي والأندلسي.

وأصل الكتاب عبارة عن مذكرات، ونوادر وأسمار، وحكم وأشعار كان يجعلها مدار مسامراته في مجلس أمير دويلة «بطليوس» «المظفر بن الأفطس» الملقب بالمتوكل (ت ٤٥٦ هـ) وقد توجه إليه ابن عبد البر سنة (٤٣٧ هـ) قادماً من مدينة «دانية» في شرق الأندلس «لأن المظفر كان عالماً لبيباً وشاعراً أديباً وبطلاً شجاعاً»<sup>(١)</sup>، وفي إمارته «كانت أيام بني الأفطس في غرب الأندلس أعياداً ومواسم، وكانوا ملجأ لأهل الآداب»<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن عذارى، «(البيان المغرب)»: (٢٣٦/٣).

(٢) المراكشي، «(المعجب)»: (٤٩).

وقد استقبل المظفر بن الأفطس ابن عبد البر وأكرم نُزله بما يكافيء منزلته وعظيم مكانته، لا سيما وأن أمراء الأندلس كانوا يتسابقون على استضافته وكسب وده، فعقد له المظفر مجلساً يحضره كبار رجال إمارته وكانت السمة الأدبية تغلب على هذا المجلس لأن المظفر كان يهتم بهذا الجانب؛ لذا فقد حفز ذلك الإمام أبا عمر بن عبد البر ليجود بجواهر علمه في الأدب بفنونه، والتاريخ وعبره، والحكم ونوادرها، لتكون هذه الندوات والمذاكرات مادة كتابه «بهجة المجالس»، والذي أهده للمظفر بن الأفطس بعد ذلك<sup>(١)</sup>.

وقد بين ابن عبد البر أهدافه من تأليف الكتاب، وحصرها في:

١ - الهدف التربوي: لأن معرفة فنون الأدب قربة إلى الله تعالى ولأنها «تحيي النفس والقلب، وتشحذ الذهن واللب، وتبعث على المكارم وتنهى عن الدنيا والمحارم»<sup>(٢)</sup>، فقد توخى ابن عبد البر توجيه مجلس المظفر تربوياً من خلال هذا الأسلوب وبخاصة في تلك المرحلة التي كانت تمرّ بها الأندلس من فرقة، وترف، ومظالم، وتنافس في شتى مجالات الحياة العلمية والإقتصادية والإجتماعية.

٢ - الهدف المعرفي الثقافي: لأن فنون الأدب «هي أولى ما يجب أن يعنى به الطالب بعد الوقوف على معاني الكتاب والسنة؛ بما تتضمنه من نوادر العرب وأمثالها، وأجوبتها ومقاطعها، ومبادئها وفصولها»<sup>(٣)</sup>. فضلاً عن الأهمية اللغوية فهناك الخبرة التاريخية وأهمية اكتسابها والتي يجب أن لا يغفلها طالب العلم، لأن

(١) انظر المقرئ، ((نفع الطيب)): (٣٨٠/٢)، وابن عذاري: ((البيان)): (٢٣٦/٣)، ولسان الدين بن

الخطيب، ((أعمال)): (١٨٣/٢).

(٢) «بهجة المجالس»: (٣٥/١).

(٣) انظر المصدر نفسه، (٣٦/١).

طالب العلم والمثقف المسلم عليه أن يحيط بتاريخ أمته وتواريخ الأمم الأخرى، لأن ذلك يعينه على فهم الماضي والحاضر والمستقبل، وأن «تقييد الأمثال السائرة، والأبيات النادرة والأخبار اللطيفة من حكم الحكماء وكلام البلغاء العقلاء من أئمة السلف وصالحى الخلف... وما حووه من حكم العجم (غير المتحدثين بالعربية) وسائر الأمم، ففي تقييد أخبارهم، وحفظ مذاهبهم ما يبعث على امتثال طرقهم واحتذائها، واتباع آثارهم واقتفائها»<sup>(١)</sup>.

بهذه النظرة الشمولية للثقافة والمعرفة يضع ابن عبد البر أمام المتخصص والمثقف مفهومه الدقيق لأهمية معرفة مناهج الأمم الأخرى وتجاربهم في الحياة، ووسائلهم في سياسة الحياة ما يعين على الاستفادة من تجاربهم في تنمية ثقافتنا وتنمية مجتمعنا على ضوء مصادرها الأصيلة: الكتاب والسنة.

٣- وأما الهدف الثالث: فهو الهدف الترويجي والترفيهي<sup>(٢)</sup>: وهو جانب مهم في بناء الفرد والمجتمع وهو محور واضح في الحضارة الإسلامية جلته سيرة المصطفى ﷺ وخلفائه حتى غدت جانباً حضارياً ثرياً في الرعاية الاجتماعية، وقد وعى ذلك أبو عمر بن عبد البر، وجعله تحصيل حاصل بقوله: «وقد جمعت في كتابي هذا من الأمثال السائرة والأبيات النادرة، والحكم البالغة والحكايات الممتعة في فنون كثيرة وأنواع جمة، من معاني الدين والدنيا؛ ليكون مما يذاكير به فيحسن موقع ذلك في الأسماع، ويخفف على النفس والطباع، ويكون لقارئه أنساً في الخلاء، كما هو زينا في الملاء... كما هو حلي بين الأصحاب»<sup>(٣)</sup>، بهذا الإدراك لطبيعة النفس الإنسانية،

(١) انظر المصدر نفسه، (٣٦/١).

(٢) «بهجة المجالس»، (٣٦/١).

(٣) انظر أبو عمر بن عبد البر، «بهجة المجالس»: (٣٧/١-٣٨).

إدراكاً لأهمية الأنشطة الترويجية في تنمية الفرد، وتحقيق توازن النفس من خلال ذلك.

وقد اهتم المحدثون بكتاب «بهجة المجالس» في العصر الحديث فمجلة احيط المصرية جردت كل الأمثال التي وردت في كتاب «بهجة المجالس» ونشرت ذلك في ملحق للمجلة سنة (١٩٠٧م) وقام الدكتور محمد مرسى الخولي مدير معهد المخطوطات سابقاً بتحقيق كتاب «بهجة المجالس» لأول مرة سنة (١٣٧٢هـ- ١٩٦٢م) في مجلدين كبيرين ونشرته الهيئة العامة للكتاب بمصر، وأعاد الدكتور الخولي رحمه الله نشر الكتاب في ثلاثة مجلدات، وقد نشرته دار الكتب العلمية بيروت وقدم له دراسة ممتازة تعد أول دراسة لكتاب «بهجة المجالس».

### المنحى التأصيلي في تأليفه لكتاب «بهجة المجالس»<sup>(١)</sup> :

وبعد أن بين أبو عمر بن عبد البر أهداف الكتاب لم تغب عنه أهمية تأصيل عمله العلمي، والإنطلاق من مبادئ التصور الإسلامي في التأليف في علم ما، وبخاصة مثل هذا العلم الإنساني، وهو الأدب بمفهومه الواسع، وقد وعى صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين أهمية ذلك، وانطلقوا يتعاملون مع العلوم الإنسانية بعامة، فضلاً عن الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى، على هدي الكتاب والسنة الشريفة، فلذلك انطلق ابن عبد البر، وهو من انتهى إليه علم الحديث في زمانه في الأندلس، من حديث يرويه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أهدى المرء المسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة واحدة يزيده الله بها هدى، ويصرفه به عن ردى»<sup>(٢)</sup>، وقوله ﷺ: «إن من

(١) المصدر نفسه: (٣٧/١).

(٢) المرجع والصفحة نفسهما.

الشعر لحكمة»<sup>(١)</sup>، والكلمة قد تكون عبارة بليغة، أو حكمة مفيدة، أو شعراً فيه حكمة، أو أي علم ينتفع به، ويعضد ذلك بأقوال الصحابة والتابعين فيروي عن عمر رضي الله عنه أنه «ما أبرم عمر بن الخطاب أمراً إلا تمثل فيه بيت شعر»<sup>(٢)</sup>، ويروي عن ابن عباس مفهومه لأهمية الأدب قوله: «كفاك من علم الأدب أن تروي الشاهد والمثل»<sup>(٣)</sup>؛ لأنه يروي لنا تجارب حياة الأمم السابقة والحاضرة، نقيس عليها ونعتبر بها في حياتنا، ويستشهد بأثر عن عروة بن الزبير على أهمية الشعر في التعبير عن معاناة الفرد، فحينما سئل عروة بن الزبير فليل له: «ما أرواك للشعر؟ قال: وما روايتي من رواية عائشة له! ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً»<sup>(٤)</sup>.

وأما عن الحكمة وهي كل علم ينتفع به لا يصادم شريعتنا دون النظر إلى مصدره، بل النظر إلى الفائدة التي تتضمنها، فيورد أبو عمر قولاً لابن عباس هو: «العلم أكثر من أن يحصى فخذوا أرواحه ودعوا ظروفه»<sup>(٥)</sup>.

بمعنى أننا إذا أخذنا من حكمة غيرنا وعلمه فعلينا بلب الحكمة لا بقشورها، والحكمة ضالة المؤمن من أي إناء خرجت فهو أحق بها.

### منهجه في الكتاب:

قسم ابن عبد البر كتابه «بهجة المجالس» إلى مائة واثنين وثلاثين باباً، كل باب له عنوان يعالج قضية من القضايا.

(١) المرجع السابق.

(٢) «بهجة المجالس»: (٣٧/١).

(٣) المرجع والصفحة نفسها.

(٤) المرجع والصفحة نفسها.

(٥) المرجع والصفحة نفسها.

ويستعرض في موضوع الباب كل ما يتعلق بموضوع الباب وفي مختلف المصادر:

( يستشهد أولاً بالآيات القرآنية التي ترتبط بموضوع الباب، فإن لم توجد آية قرآنية فيكتفي بالحديث النبوي الشريف.

( يورد الأحاديث النبوية المتعلقة بموضوع الباب، ويتتقى منها ما يصيب كبد المعنى، ولما كان ابن عبد البر عالم زمانه في علم الحديث فهو قطعاً لا يستشهد بحديث موضوع، وإنما يستخدم الحديث المتعلق بالباب وإن كان ضعيفاً، وهو لا يشير إلى درجة الحديث وإنما استشهاده به يدل على قبوله في بابه.

( ثم يذكر ما ورد عن الصحابة في الباب.

( يستشهد بأقوال التابعين بعد الصحابة.

( ثم ما ورد من أخبار أهل الكتاب.

( ثم الحكمة المروية عن الأمم الأخرى مثل الفرس والروم والصينيين والهنود.

( ثم يختتمها بعيون الشعر بعامه المشرقي والأندلسي.

( إذا كان له شعر أو حكمة لنفسه فيذكرها.

( يحيل إلى مؤلفاته الأخرى.

( يذكر أحياناً مصادره التي استقى عنها.

( يناقش بعض القضايا وينقدها إن كانت شعراً أو حكمة أو خبراً.

( يستشهد ببعض الأساطير أو الإسرائيليات، وأعتقد أن إيراده لهذه الأخبار هو

محض القصة والعبرة منها، وإن كانت خيالية فهي ليست في معرض بناء الأحكام الفقهية، وإنما في إيراد التجارب البشرية والمواظ.

## اهتمام العلماء في القديم والحديث بكتاب «بهجة المجالس»:

لقد أولى الأدباء في القديم والحديث اهتمامهم بكتاب «بهجة المجالس» لكونه يعد نموذجاً من المؤلفات الأدبية في القرنين الرابع والخامس، وبخاصة في عصر الطوائف، حيث غلب على أمرائها الإهتمام بالمجالس الأدبية، وبالتالي فالكتاب، بمنهج تأليفه الذي جمع بين أدب المشرق والمغرب والأندلس منه بخاصة، فضلاً عن ارتقاء لغته، وسمو مباحثه عن الفاحش من القول، أو المباحث التي ليس فيها فائدة، واحتوائه على سمت دعوي وعظمي شمولي جعله يوظف المادة الأدبية في إعطاء الأمراء وغيرهم من أهل زمانه القيم والسلوكيات الإسلامية في الجِد واللُهو، والزهد والسياسة، والعلم والأمثال والحكم، والسوابق، وتقديعها بأسلوب جذاب يشد السامع كما بينا. مستعيناً بعيون الشعر والحكم والأمثال.

كل ذلك حفّز العلماء في الأندلس على العناية به، فقد اختصره بعضهم ليكون في متناول الوعاظ وطلبة العلم والعامّة. ومن أهم المختصرات:

( مختصر سعيد بن أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن النون التجيبي (ت ٧٥٠) وسماه «بغية المؤانس من بهجة المجالس وأنس المجالس»<sup>(١)</sup>.

وهناك من اختار بعض أبوابه وعنون به هذه المختارات، وقد ظن بعض المحدثين أن هذه المختارات كتب قائمة بذاتها كما سنبين ذلك في موضعه، ومن هذه المختارات:

### ١- الأمثال السائرة والأبيات النادرة<sup>(٢)</sup>.

(١) توجد نسخة منه في مكتبة القرويين برقم: (١٣٥١) وتوجد نسخة في الخزانة العامة بالرباط، انظر

د. ليث سعود، ابن عبد البر وجهوده في التاريخ: (٢٢٩).

(٢) توجد نسخة منه بدار الكتب المصرية برقم (١٩٦٢ أدب) انظر د. ليث سعود، المصدر السابق:

ص(٢٣٣)، وانظر نشرة معهد المخطوطات بالكويت العدد: (١٥) سنة (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)، (١٩)



## ٢- رسالة في أدب المجالسة وحمد اللسان<sup>(١)</sup>.

وقد اطلعت على الأول والثاني في المختارات من مكتبة دار الكتب المصرية، وعند مقارنة المخطوطتين وجدتهما متطابقتين، وعند مقارنتهما بكتاب «بهجة المجالس» تبين أنهما أبواب من كتاب «البهجة»، تبدأ من باب «أدب المجالسة» وتنتهي بباب الحق والباطل، والنساخ هم الذين اختاروا العناوين.

### الكتب الأدبية المخطوطة لابن عبد البر:

وأهم كتب الأدب المخطوطة لابن عبد البر:

١- «الإهتبال في ما ورد في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال»، (والإهتبال هو الإقتناص والإغتنام)<sup>(٢)</sup>، حيث قام أبو عمر ابن عبد البر بالإنقاء من شعر أبي العتاهية إسماعيل بن القاسم الأشعار المتعلقة بالزهد والمواعظ والأمثال والحكم<sup>(٣)</sup>.

وقد صرح ابن عبد البر في كتابه «بهجة المجالس» بقوله: (وأشعار أبي العتاهية في ذم الدنيا كثيرة جداً، وقد جمعناها شعراً على حروف المعجم مما قاله في المواعظ والحكم)<sup>(٤)</sup>.

سنة (١٤٠٥هـ-١٩٨٥م)، حيث علقت على وهم وقع فيه أحد الباحثين وهو فايز عبد النبي القيسي لظنه أن هذه المخطوطة كتاب مستقل.

(١) توجد منه نسختان في دار الكتب المصرية: الأولى برقم (٥٥٢) أدب تيمور والثانية برقم (٣-١٦٦) أدب نفس المصدر السابق.

(٢) انظر «لسان العرب»، ابن منظور، باب (هبل).

(٣) انظر (الإهتبال): ورقة (١)أ.

(٤) «بهجة المجالس»: (١/٢٩٣).

وقد أشار الدكتور محمد الدش<sup>(١)</sup> في دراسته الموسعة في أبي العتاهية إلى أن أهم المخطوطات التي تتضمن شعر أبي العتاهية (مجموعة ابن عبد البر النمري التي تحمل اسم:

«ديوان أبي العتاهية» المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٣٩٣ أدب) وهناك نسخ أخرى في برلين ودمشق وبيروت واستنبول<sup>(٢)</sup>.

وأهمية هذه المجموعة تأتي من ناحيتين:

الأولى: أنها أكبر مجموعة من شعر أبي العتاهية بين أيدينا يجمعها كتاب واحد.

الثانية: أن ابن عبد البر نفسه تحرى في جمعها الصحة في سبيل غاية كريمة.

وتمتاز هذه المجموعة أنها مرتبة على القوافي ترتيباً أبجدياً وتنتهي بذكر أرجوزته المشهورة (بذات الأمثال) ذكر منها تسعة وثلاثين شطراً فحسب.

وهذه المخطوطة كتبها عبد الرحمن بن عبد الله المهاجر في المدينة المنورة في (٢ رجب ١٢٩٧هـ).

( وأما لويس شيخو اليسوعي فقد أخرج نفس هذه المجموعة لابن عبد البر وأضاف إليها ما عثر عليه من أشعار أبي العتاهية في الزهد مما هو مثبت في ثنانيا كتب الأدب والتاريخ. وأضاف إلى نسخة ابن عبد البر أشعاراً أخرى في المديح والعتاب والوصف والهجاء والأمثال والرثاء واسماه «الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية» المطبوع في بيروت، وقد شوه نسخة ابن عبد البر بل وأغفل ذكره، وظهر تعصبه من خلال حذفه إسم النبي ﷺ والأبيات التي تدل على التوحيد، وقد بين

(١) أبو العتاهية حياته وشعره: (ص ١٧٨)، نشر وزارة الثقافة، مصر، (١٣٨٨هـ-١٩٦٨م).

(٢) ذكرها برو كلمان في تاريخ الأدب العربي.

ذلك الدكتور شكري فيصل بالتفصيل في كتابه عن أبي العتاهية<sup>(١)</sup>.

( والمحاولة الأخرى لجمع أشعار أبي العتاهية هي محاولة الدكتور شكري فيصل حيث اعتمد على نسخة توبنجن في المانيا وهي مخرومة من أولها وأعيدت كتابة الصفحات الخمس والعشرون الأولى ولذا قد حصل خلط الناسخ في مقدمتها بين كلام ابن عبد البر وغيره، ورجح الدكتور فيصل أنها كتبت في سنة (٦٠٣هـ) وقبلها مع نسخة الظاهرية التي تحتوي على مقدمة ابن عبد البر كاملة، وأضاف أشعاراً أخرى في الزهد مما جمعه من المصادر فضلاً عما نقله عن النسختين، وسمى كتابه «أبو العتاهية أشعاره وأخباره».

( وقد وقعت على نسخة أخرى من كتاب ابن عبد البر وهو معنون باسم «الإهتبال بما ورد في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال» وهي محفوظة في مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة برقم (١٨ أدب)<sup>(٢)</sup> وعندي صورة منها عن صورة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة المرقمة (١٠٣٦ أدب) وهي أتم من النسخ التي اعتمد عليها لويس شيخو وشكري فيصل حيث إنها نسخت في القرن العاشر الهجري سنة (٩٩٢هـ) بخط محمد الصالح الهلالي فهي أقدم من نسخة دار الكتب التي اعتمدها شيخو.

ونسخة المدينة على ما اعتقد أصح نسبة إلى أبي عمر ابن عبد البر لأن عنوانها يتوافق وطبيعة العمل الذي قام به أبو عمر حيث اقتنص الحكم والأمثال وأشعار الزهد من عموم أشعار أبي العتاهية.

وأما نسخة دار الكتب فعنوانها لا يمثل حقيقة مضمون الكتاب لأن الكتاب ليس

(١) انظر أبو العتاهية أشعاره وأخباره: (١٠-١٤).

(٢) انظر المنتخب من مخطوطات المدينة المنورة: (٦١).

ديواناً لأبي العتاهية وإنما هو مقتنصات اهتبلها ابن عبد البر من شعر أبي العتاهية وجمعها في كتاب «الإهتبال»، فوسم الكتاب بالديوان يقتضي نسبته إلى أبي العتاهية لا لابن عبد البر، وإذا أريد نسبة العمل لابن عبد البر فيقال (جمع ابن عبد البر) وقد وهم الدكتور الدش في وصف طريقة تصنيف الكتاب حيث قال بأن الأشعار مرتبة على الحروف الأبجدية والصحيح على الحروف الهجائية بالترتيب الأندلسي، وبما أننا نتناول جهد ابن عبد البر في خدمة شعر أبي العتاهية فالمفروض تجلية جهوده التي بذلها في جمع هذا الكم من أشعار أبي العتاهية، فالإنصاف يقتضي الكشف عن دوره في نقل أصح ما نسب من الأشعار إلى أبي العتاهية، فضلاً عن منهجية الإنتقاء القائمة على حس فني مرهف، ومنهج أدبي ملتزم يتوخى توظيف الشعر لخدمة الأمة، وتنمية الشخصية الإسلامية، ودور مهم قام به ابن عبد البر في تلك المقدمة التي قدم بها أشعار أبي العتاهية التي تعتبر شهادة من عالم موسوعي لأبي العتاهية وإنصافه ووضعها في المكان المناسب له بعد أن كثرت فيه الأقوال فضلاً عن تجلية مفهوم الإسلام والشعر، فبين بأن الإسلام اعتبر الشعر نشاطاً من أنشطة المجتمع التي تعمل على تنميته، وبخاصة إذا كان ملتزماً بتصور الإسلام للكون والحياة والإنسان، وبالتالي فإن ابن عبد البر ينطلق من قاعدة الشعر للمجتمع لا الشعر للشعر.

وأما الكتب المخطوطة الأخرى فهي:

٢- الأمثال الساترة والأبيات النادرة<sup>(١)</sup>

(١) ذكرهما بروكلمان: «تاريخ الأدب العربي»: (٢٦٣/٦). وتوجد نسخة منه بدار الكتب المصرية برقم (١٩٦٣ أدب) في (١٣٥ ورقة) والحقيقة أنها ليست كتاباً مفرداً وإنما هي جزء من كتاب «(بهجة المجالس)» ابتداءً فيه من (باب أدب المجالسة) وانتهى إلى (باب الحق والباطل)، انظر «(بهجة المجالس)» (٢٢١-٣٩-٢٥٧٩) ويبدو أن الناسخ قد اختار العنوان من مقدمة «(بهجة المجالس)» (٣٥/١) يقول: (تقييد الأمثال الساترة والأبيات النادرة..). وتؤكد ذلك عند مقابلة المخطوطة بكتاب «(بهجة المجالس)» وقد وهم بروكلمان في جعله كتاباً مستقلاً ويبدو أنه لم يتصفح المخطوط بل أدرج عنوانه فقط.

٣- رسالة في أدب المجالسة وحمد اللسان<sup>(١)</sup>.

٤- مختارات من الشعر والنثر<sup>(٢)</sup>.

٥- نزهة المستمعين وروضة الخائفين<sup>(٣)</sup>.

### الكتب الأدبية التي في حكم المفقود:

١- البستان في الإخوان<sup>(٤)</sup>.

٢- العقل والعقلاء<sup>(٥)</sup>.

(١) ذكرها بروكلمان في تاريخ الأدب العربي (٢٦٣/٦). وهو وهم آخر. والحقيقة أن هذه المخطوطة قطعة

من كتاب ((بهجة المجالس)) وهي نسخة مكررة للمخطوطة السابقة ولكن الناسخ أعطاها عنواناً آخر أكثر واقعية لأنه ابتداء من (باب أدب المجالسة وحمد اللسان) حتى (باب الحق والباطل) فوضع لها عنوان الباب الذي بدا به، وتوجد فيه نسختان في دار الكتب المصرية الأولى: ضمن مجموع برقم (١٥٥٢ أدب تيمور) والثانية: برقم: (١٦٦ أدب) ضمن مجموع وقد وقع أحد المحققين وهو الأستاذ فايز عبد النبي بخطأ أكبر من خطأ بروكلمان حيث أعلن بأنه عثر على مخطوط فريد في نسخة واحدة لابن عبد البر وأنه قام بتحقيقه وهو أدب المجالسة وقد استدركت عليه في نشرة أخبار التراث التي كانت تصدر بمعهد المخطوطات بالكويت: انظر العدد (١٥) سبتمبر ١٩٨٤ والعدد ١٩ - مايو ١٩٨٥.

(٢) ذكره بروكلمان: ضمن مخطوطات المتحف البريطاني ووصفها بأنها مرتبة حسب موضوعاتها في سبعين

باباً انظر ((تاريخ الأدب العربي)) (٢٦٣/٦).

(٣) ذكره بروكلمان وأشار أنه توجد نسخة في المتحف البريطاني، ورجح بأنه منحول ومنسوب إلى ابن عبد

البر: انظر ((تاريخ الأدب العربي)) (٢٦٤/٦).

(٤) ذكره القاضي عياض اليحصبي في ((ترتيب المدارك)): (٨١٠/٣).

(٥) أحال إليه ابن عبد البر في كتابه ((بهجة المجالس)): (٥٣٤/٢).

## المحور الثالث

### أشعار ابن عبد البر: أغراضها وخصائصها

#### أغراض الشعر الأندلسي والمؤثرات فيه :

يتنوع الشعر تنوع حاجات الإنسان وأحاسيسه ومعاناته فهو بين: راحة، وقلق، وبين غنى وفقر، وحب وكره، ومدح وذم، وحرب وسلم، أو ناصح ومرشد، أو في جد أو هزل، أو شهرة وأقول، أو في منحة أو محنة.

ولم يترك الأندلسيون حالة من حالاتهم النفسية والاجتماعية إلا ونظموا فيها الشعر، ولم يدعوا غرضاً من الأغراض التي يصح أن يقال فيها إلا ضربوا فيه بسهمهم، فلا تكاد تجد ناحية من نواحي الحياة عندهم لم يسجل لهم فيها شعر، والمأثور من كلامهم شاهد عدل وبرهان ساطع على ذلك<sup>(١)</sup>.

وقد أسهم الأندلسيون بالنظم في مجالات مختلفة ولأغراض شتى، وكان هذا النظم متأثراً بمؤثرات متنوعة منها:

- ١ - طبيعة الحياة الاجتماعية في الأندلس.
- ٢ - طبيعة البيئة الأندلسية وجمالها.
- ٣ - الإغتراب والرحلة إلى الأندلس أو بالعكس.
- ٤ - طبيعة الحياة الثقافية في الأندلس.
- ٥ - الأحداث السياسية التي مرت بها الأندلس، سواء كانت أحداثاً داخلية أو صراعاً خارجياً.

(١) انظر محمد عبد العزيز عيسى، ((الأدب العربي في الأندلس)): ص(١١١).

وعلى ضوء تلك المجالات المؤثرة على الشاعر فقد تعددت أغراض الشعر الأندلسي، فللطبيعة الخلابة، وتنوع التضاريس الجغرافية والمناخية أثر كبير؛ لذلك نجد أن الشعراء الأندلسيين قد أغرموا بوصف المدن والقلاع والبساتين والأنهار، وبسبب طبيعة حياة المجتمع الأندلسي المترفة، وما يشيع خلال هذا المجتمع من مظاهر، كالملايس الفاخرة، والبيوت الفارحة، والإهتمام بالأطعمة، وشيوع بعض المظاهر السلبية مثل شرب الخمر واللهو بأنواعه، كالغناء والطرب والصيد، وأنواع المسابقات التي تخرج عن حدها المتناسب مع حاجة الإنسان، وكذلك دور المرأة في المجتمع، وتنوع أدوارها سلبياً وإيجابياً، كل ذلك كان له أثره في أغراض الشعر كانتشار شعر الزهد، أو الغزل، أو وصف الخمر والأطعمة والملابس وغير ذلك<sup>(١)</sup>.

وشاعت ظاهرة أخرى في المجتمع الأندلسي ألا وهي الرحلة إلى المشرق، والإغتراب لطلب العلم، أو الرحلة الجغرافية، أو لأداء فريضة الحج، أو بالعكس، وورود المشاركة إلى الأندلس علماء أو تجاراً، أو مجاهدين في الثغور، هذه الظواهر كان لها أصدائها في نفوسهم، فجعلوا الشعر معبراً عن أحاسيسهم المتنوعة في اغترابهم عن ديارهم وأحبابهم ومرابعهم التي ترعرعوا فيها<sup>(٢)</sup>.

فبرز شعر الحنين إلى الأوطان والأهل والخلان، ووصف المدن والباق بما ينظرها في مسقط رؤوسهم. ولعل عبد الرحمن الداخل ومخاطبته للنخلة التي تذكره بالمشرق مثال على ذلك. وذكر المعاناة التي يواجهها المغترب من جهالة له في المجتمع الذي يحل فيه، أو غمط لحقه وعلمه، أو فاقته في اغترابه إلى غير ذلك<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر د. إحسان عباس، ((تاريخ الأدب الأندلسي)) عصر سيادة قرطبة (٢٤، ٥٣) نشر دار الثقافة، بيروت، (١٣٧٨هـ-١٩٦٨م)، ط١، وانظر د. منجد مصطفى: (٢٥).

(٢) نفس المصدر: (٢٥).

(٣) انظر د. منجد مصطفى، ((الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة)): (٦٥-٦٦)، و((الإتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي)): (٣١٩).

وأما الحياة الثقافية فكان لها من الأثر حظ وافر لأنها تمثل حس الأمة ونبضها؛ فلذلك كان لدعوة الإسلام ومنهجها أثره في بناء الشخصية الثقافية الأندلسية التي تشبعت بمبادئ الإسلام، فتأسست شخصيتها الثقافية في ظل تعاليمه، واتخذت لغة القرآن الوعاء التعبيري للعلم والفن والحضارة، وبلغت شأواً بعيداً في فصاحة اللغة وشيوع الشعر لغة للتخاطب في بعض بقاع الأندلس، مثل مدينة شلب آنفة الذكر. فضلاً عن المنهج التعليمي الذي تميزت به الأندلس عن المشرق في اتخاذ الشعر أساساً لتعليم اللغة، لأنه ديوان العرب ليكون مقدمة لتعلم القرآن وفهمه<sup>(١)</sup>.

وكان للأمرء والخلفاء دور كبير في تشجيع الشعراء والأدباء، وذلك من خلال مجالسهم العلمية والأدبية التي يتطرح فيها الشعراء، ويتسابقون في نظم القصائد مدحاً، أو صفاءً، أو عتاباً، أو تعظيماً، أو هجاءً، أو رثاءً، وغيرها من الأغراض.

ولعل في مجالس الداخل، والناصر، والحاجب، وابن الأفطس أمير بطليوس، وابن عباد أمير إشبيلية، وابن ذنون، ومجاهد العامري أمير دانية وغيرهم من أمرء الأندلس الذين كانوا يتسابقون على جذب الشعراء وأهل العلم إليهم حباً في المنافسة، فشاعت ظاهرة تأليف الكتب الأدبية مثل «العقد الفريد» لابن عبد ربه، و«الأمالي» لأبي علي القالي، و«بهجة المجالس» لابن عبد البر، و«طوق الحمامة» لابن حزم وغيرها<sup>(٢)</sup>.

وأما الحياة السياسية فتلك كان لها عميق الأثر في نفوس الأندلسيين شعراء وعلماء وعامة، فتأثروا بها في حالتي الاستقرار والقوة، وفي حالة الإضطراب

(١) انظر ابن خلدون: (٢/٢٨٩)، والربيع الإسلامية في الأندلس، خوليان ريبوا: ص (٤٥-٤٧).

(٢) انظر د. إحسان عباس، «تاريخ الأدب الأندلسي»، عصر الطوائف: (٧١-٨٠)، نشر دار الثقافة، بيروت، (١٩٧٤م)، ط/٣، وعصر سيادة قرطبة: (٩٠ وما بعدها).



والضعف، فلذلك نجد كتب الأدب تزخر بشعر في وصف الأحوال السياسية والمصائب التي مرت على البلاد من خلال ما تعرضت له من هجوم من النصارى، وبخاصة في مراحل الضعف والانحراف عن قيم الإسلام في الحياة، والصراعات القبلية والقومية، وبخاصة بعد سقوط قرطبة، فشاع شعر النقد السياسي ورثاء المدن، بل وصل الأمر إلى الحث على الجلاء والرحيل من الأندلس، وهذه الحالة حصلت بعد سقوط قرطبة إثر الفتنة القرطبية (٣٩٩هـ)، أو قبيل سقوط غرناطة وأقول دولة الإسلام في الأندلس<sup>(١)</sup>.

### اهتمام ابن عبد البر بالشعر ونظمه :

إن نشأة ابن عبد البر العلمية كانت تحت ظل أسرة علمية، وتحت رعاية والده وجده؛ مما هيا له الفرص في أن يغترف العلم من منابعه، فضلاً عن أنه نشأ على المنهج الأندلسي في التعليم الذي يبدأ بتحفيظ الطالب من مراحل الأولى قصائد الشعر وعيونه، ثم تدرجه في مراتب الطلب جعلته حريصاً على أن يستكمل بناءه المتخصص، فدرس كتب النحو واللغة والأدب والشعر. وبما أنه لم يخرج في رحلة علمية إلى المشرق لذا حاول استكمال هذا النقص عن طريق التوسع في التلمذ على العلماء القادمين من المشرق، ومشافهتهم واستجازتهم، فضلاً عن مكاتبة العلماء المعروفين في زمانه خارج الأندلس، وطلبه بأن يجيزوه مروياتهم، وهي كمية ضخمة من الثقافة المتنوعة، إضافة إلى روايته وجادة عن كثير من المصادر التي لم يتسنى له أن يأخذها من مصادرها، ولعل أكثر شيوخه رواية للكتب هو عبد الوارث بن سفيان وعنه أخذ بعض كتب الشعر والأدب واللغة، فروى عنه تصريحاً: كتاب «الكامل في الأدب لأبي العباس المبرد»، وكتاب «العين في اللغة» للخليل بن

(١) انظر نفس المصدر: (١٩ وما بعدها).

أحمد الفراهيدي، وكتاب المعارف لابن قتيبة الدينوري، وغيرها من الكتب عن شيوخ آخرين مثل إبراهيم بن سيخت، روى عن كتاب «الزاهر» لابن الأنباري في اللغة، وكتاب «الأمثال» للأصمعي عن أبي زكريا يحيى بن عائد، وغيرها من الكتب والدواوين، وكتابه «بهجة المجالس» الزاخر بالمادة الأدبية والشعرية خير دليل على ذلك<sup>(١)</sup>.

( وأما كتابه «الإهتبال في ما ورد في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال»<sup>(٢)</sup> فهو دليل على حس شاعري، وثقافة أدبية عميقة انتقائية، ومنهج أدبي واضح يضع معامله في مقدمته لهذا الكتاب، حيث يبين فيه موقف الإسلام من الشعر وأهمية الشعر في إصلاح الأخلاق وإحجام النفوس وتقويتها على الطاعة، ومن ناحية أخرى ذم مقاصد الشعر السيئة التي تشيع الرذيلة والرقعة في الدين؛ ولذلك عمد إلى الإهتمام بشعر الحكم والأمثال؛ لما في ذلك من فائدة موجهة للشعر، وبخاصة شعر أبي العتاهية الذي عرف شعره بالزهد والحكمة، وبخاصة بعد توبته من الغزل والمجون.

### ملكة ابن عبد البر الشعرية :

وقد كانت هذه المؤثرات التي ذكرناها لها دور كبير في شحذ ملكة قول الشعر لدى أبي عمر بن عبد البر القرطبي، فاليئنة العلمية والطبيعة الخلابة الأندلسية فضلاً عن المنهجية في التعليم يجعل الشعر هو الباب الذي يلج منه إلى سائر العلوم، كل

(١) انظر د. ليث سعود، ابن عبد البر وجهوده في التاريخ: (١٨٠ وما بعدها، ١٣٣، ١٣٩).

(٢) نسخة منه مخطوطة في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة برقم (١٨١ أدب) وصورها معهد المخطوطات بالقاهرة برقم (١٠٣٦ أدب) وعندي نسخة عنها، وهي في (١٦١ ورقة) وقد اعتمدها الدكتور شكري فيصل في جعلها مقدمة لكتابه «أبو العتاهية أشعاره وأخباره».

هذه عملت على إكساب ابن عبد البر هذه الخبرة فضلاً عن الطبع والتطبع، فلذلك نجده يتفاعل مع المواقف المتنوعة فيعبر عن معاناته النفسية أو العاطفية أو العلمية ببعض الأبيات التي لا يجد بداً من قولها لتأثره بحدث كما نرى تعبيره عن تأثره بالأحداث السياسية عقب الفتنة القرطبية، ووجهة نظره في أسباب ذلك، وجدله الغاضب مع زوجته التي عارضته في قرار ترك إشبيلية، وبخاصة وهو صديق حميم لحاكم إشبيلية، زميله في الدراسة القاضي إسماعيل بن عباد.

وكان الشعر عند ابن عبد البر كذلك مرآة للتعبير عن حقيقة الأزمة في عصر الطوائف، وأنها أزمة حب الرئاسة التي أدت إلى الصراع وتفتت الأندلس فوصفها بقوله:

حب الرئاسة داء يُخلق الدنيا ويجعل الحب حرباً للمحيينا

والناظر في شعر ابن عبد البر يلحظ فيه الملكة الطبيعية في النظم لكون أشعاره التي قالها كانت إما تعبيراً عن غضب، أو نصح، أو وصف، أو فكاهة، أو ذم، أو مدح، أو فخر، أو الزهد والإخوانيات.

وقد أحصيت له (١١٢) بيتاً من الشعر، ولعل هناك غيره كثير مفقود، ولكن هذا الذي حصلت عليه من خلال ما رواه هو في كتبه أو روي عنه، وهو في أغراض متعددة كما سنرى.

وهو في مجمله شعر تلقائي يقوله سليقة، فعندما تقع حادثة يتفاعل بها، وتؤثر فيه فينطلق لسانه معبراً عن رأيه، أو حالته النفسية، أو تقويمه للرجال، والأحداث على ضوء ذلك. فيأتي الشعر حياً معبراً عن حس مرهف ونظم موق، فضلاً عن شيوع الصور الشعرية الجميلة، واستعمال دقيق لأساليب البلاغة كالتشبيه والكناية والطباق والجناس والتورية، فيجسم لنا من خلال ذل الحالة النفسية وتصوير الموقف

بحيث تستطيع من خلاله أن تتجلى صورة ابن عبد البر وحركته وعباراته بحسب الموقف الذي يتصدى له.

أغراض الشعر عند ابن عبد البر:

والإمام الموسوعي ابن عبد البر ابن بيته، وأحد أركان العلم في المجتمع الأندلسي، فقيه نشأ وتعلم، ودرج في مدارجه حتى صار علماً من أعلامه.

وهو الإنسان الذي لا تغيب عن حسّه المعاناة التي يمر بها المجتمع الأندلسي المسلم وبخاصة بعد سقوط قرطبة وتفكك الدولة الواحدة إلى دويلات متناحرة تتسابق إلى طلب رضا أعدائها على حساب وحدتها، والعدو «يعين هذا على هذا وهذا على هذا» كما يقول صاحب تاريخ الأندلس ابن الكردبوس<sup>(١)</sup>، ويقول المراكشي: «فأما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحد إلا يؤدي إليه - أي الفونسو ملك قشتالة - الإتاوة وهم كانوا أحقر في عينيه وأقل من أن يحتفل بهم»<sup>(٢)</sup>.

قد أبلغ ابن عبد البر في وصف ملوك الطوائف بقوله: «وصاروا خولاً للنصارى - أي خدماً»<sup>(٣)</sup> فكان لهذا الحال أثره على النفس، فلذلك عبر ابن عبد البر عن أحاسيسه ومعاناته الشخصية، أو الاجتماعية، أو الثقافية، وجعل الشعر متنفساً لذلك عندما تحتدم الأحاسيس وأهم هذه الأغراض:

(١) أبو مروت عبد الملك بن الكردبوس، «تاريخ الأندلس»، تحقيق أحمد مختار العبادي: (٨٢)، مدريد (١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م). وانظر د. ليث سعود، ابن عبد البر وجهوده في التاريخ: (٦١ وما بعدها).

(٢) ((المعجب)): (١٩٣).

(٣) ابن عبد البر، ((القصد والأمم في التعريف بأنساب العرب والعجم)) طبعة السعادة، مصر، (١٣٥٠ هـ).

## أولاً- الزهد والرقائق؛

الزهد والرقائق في بناء ابن عبد البر النفسي تربية نشأ عليها في ظل جده محمد الذي عرف بالزهد، ووالده الفقيه.

والزهد كان يمثل حالة رفض لأنماط سلوكية شاعت في المجتمع الأندلسي بسبب الزحف، وبسبب التمزق السياسي الذي أدى إلى تحكم بعض الولاة والأمراء في الأمة، وطلب ولايتها لشخص الحكام ذاتهم ومعاداة الآخرين على ضوء ذلك. وهذه الحالة أدت بدورها إلى بروز ظاهرة التملق لدى الأمراء وطلب الحضوة عندهم، بل وتوظيف بعض العلماء طاقاتهم في خدمة هؤلاء الأمراء وإن تعدوا حدود الله<sup>(١)</sup>.

ولكن ابن عبد البر بقي ملازماً لمنهجه محافظاً على كرامته وعزته، فلذلك غلب عليه التنقل بين الإمارات بحثاً عن الأمل فالأمل؛ ولذلك تردد متنقلاً بين مشرق الأندلس ومغربها مرات بحسب الأحوال السياسية، لذا كان منهجه هو الزهد في الدنيا، والزهد مما في أيدي هؤلاء الأمراء، فلذلك حث على أنواع من الزهد هي:

الزهد في الدنيا: وذلك من خلال نصحه لابنه عبد الله عندما تغير عليه المعتمد ابن عباد أمير إشبيلية، وحبسه وكان عبد الله بن يوسف، أي ابن عبد البر الابن يعمل كاتباً عند المعتمد، وعندما سمع ابن عبد البر الوالد بذلك توجه من شرق الأندلس إلى غربها ليفك أسر ابنه، فاستقبله المعتمد، وأطلق سراح الابن كرامة لوالده العالم<sup>(٢)</sup>، لذلك نصح

(١) د. منجد مصطفى بهجت، ((الإتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي)): (١٤٦-١٥١).

(٢) انظر ابن الأبار، ((اعتاب الكتاب)) تحقيق محمد صالح الأشر، مجمع اللغة العربية، دمشق، (١٣٨١هـ-١٩٦١م)،

ط/١، و((المغرب في حلي المغرب)) لابن سعيد، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، (١٩٦٤م، ط/٢).

تجاف عن الدُّنيا وهون لغدرها      ووف سبيل الدين بالعروة الوثقى  
وسارع بتقوى الله سرّاً وجهرة      فلا ذمة أقوى هديت من التقوى  
ولا تنس شكر الله في كل نعمة      يمن بها فالشكر مستجلب النعمى  
فدع عنك ما لاحظ فيه لعاقل      فإن طريق الحق أبلج لا يخفى  
وشح عنك بأيام بقين قلائل      وعمر قصير لا يدوم ولا يبقى  
ألم تر أن العمر يمضي مولياً      فجذته تبلى ومدته تفنى  
ونخوض ونلهو غفلة وجهالة      وننشر أعمالاً وأعمالنا تطوى  
تواصلنا فيه الحوادث بالردى      وتتنابنا فيه النوائب بالبلوى  
عجبت لنفس تبصر الحق بينا      له وتأبى أن تفارق ما تهوى  
وتسعى لما فيه عليها مضرة      وربى أهل أن يخاف وأن يرجى  
وإن كان ربي غافراً ذنب من يشا      فإني لا أدري أأكرم أم أخرى

الزهد بما في أيدي الناس: ولابن عبد البر مقطوعة أخرى في الزهد، يتكلم فيها عن الكسب وضرورة الزهد فيما في أيدي الناس، وكانت هذه سمة العلماء العاملين الذين يأنفون من الخضوع للناس<sup>(٢)</sup>؛ لذلك كنا نرى جمعاً من علماء الأندلس وغيرها يعتمدون على أنفسهم في الكسب، اعتماداً على التجارة أو الزراعة، أو قبول هدايا السلطان الذي يظن فيه الخير من غير تملق ولا شروط.

(١) انظر «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، أحمد بن محمد بن المقرئ التلمساني، تحقيق إحسان

عباس: (٢٨-٢٩)، دار صادر، بيروت (١٣٨٨هـ-١٩٦٨م)، وانظر «الفتح بن خاقان»، (مطمح

الأنفس ومسرح التأسف): (٧٠-٧١).

(٢) انظر حسين مؤنس، شيوخ العصر في الأندلس، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ط/١، ١٣٥٨هـ-

(١٩٦٥م): ص (٥ وما بعدها).

وكان ابن عبد البر يتعفف من أن يمد يده لأحد وإنما يكتسب من خلال التعليم، أو من قبوله الهدايا غير المشروطة، وألف كتاباً في «قبول جوائز السلطان»، وبين حدودها وشروطها متبعاً في ذلك علماء سلف الأمة، فيقول في أهمية التعفف للعالم وعدم السؤال:

تعفف المرء عن سؤاله	وكسبه الحل باحتياله
وسعيه في صلاح عيش	لمن يواريه من عياله
مروءة وبالع بها	من يبلغها منتهى كماله
ومن يصن وجهه يزنه	صيانة الوجه من جماله
رضى الفتى بالقضاء عز	وذلة الوجه في ابتذاله

وفي رده على من عابه على إفتائه بجواز قبول هدايا السلطان وبشروط، غضب وأجاب بقوله:

قل لمن ينكر أكلي	لطعام الأمراء
أنت من جهلك هذا	في محل السفهاء <sup>(١)</sup>

### ثانياً: الوعظ والنصيحة:

وكان ابن عبد البر يتعرض لبعض المواقف التي تملئ عليه أن يقول رأيه في مسألة من المسائل، أو ينصح فيها المقابل في أمر من الأمور الحياتية، في العلم أو الدين أو الصحة أو غيرها.

(١) انظر المقرئ ((نفع الطيب)): (٢٣٥/٣).

وفي هذين البيتين ينصح طلابه فيعظهم بقوله<sup>(١)</sup>:

مقالة ذي نصح وذات فوائد إذا من ذوي الألباب كان استماعها  
عليكم بآثار النبي فإنها من أفضل أعمال الرشاد اتباعها

فيوجههم إلى اتباع السنن والآثار النبوية؛ فإن في ذلك ضمان للرشد في الإتيان.

ومن وعظه لابنه ونصيحته له، بعد أن أصابه ما أصابه من المعتضد بن عباد بسبب شدة مداخلته له لكونه وزيراً للقلم (أي كاتب الأمير) فحسده الحاسدون، ووشوا به إلى المعتضد فتغير عليه، وأراد قتله، كما قلنا سابقاً، لولا شفاعته والده الذي كان صديقاً لوالد المعتضد فعفا المعتضد عن ابن عبد البر الابن إكراماً لوالده؛ لذا قدم ابن عبد البر الوالد هذه الأبيات نصيحة لولده ليغير من اهتماماته وطبيعة علاقاته، فقال<sup>(٢)</sup>:

تجاف عن الدنيا وهون لغدرها ووف سبيل الدين والعروة الوثقى  
فدع عنك ما لاحظ فيه لعاقل فإن طريق الحق أبلى لا يخفى

ثم ينصح ابنه بعد أن فك أسره في إشبيلية، ضارباً له المثل والقذوة من نفسه، وينصحه بسلوك طريق أهل العلم، وليترك الطريق الذي أوقعه في المشكلة، لمخالطته للحكام ومجاراتهم، والدخول في صراعاتهم، وبين له أن الفخر الحقيقي هو الفخر بالعلم وبالإنتساب إليه، وليس الفخر بالنسب المجرد، فالعلم يرفع منزلة الإنسان، ويلقي عليه ثوب الهيبة والإحترام عند الخلق، وتلك منة من الله يجود بها على عباده: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

(١) ((جامع بيان العلم وفضله)): (٣٥/٢)، طبعة المنيرة.

(٢) ((الفتح ابن خاقان))، ((مطمح الأنفس)): (٧٠-٧١)، وانظر المقرئ، ((فتح الطب)): (٤/٢٨-٤٩).



فيقول له موصياً ناصحاً<sup>(١)</sup>:

إذا فاخرت فافخر بالعلوم ودع ما كان من عظم رميم  
فكم أمسيت مُطرحاً بجهل وعلمي حل بي بين النجوم

وكان لهذا التوجيه أثره على ابن عبد البر الابن، حيث انصرف إلى الإهتمام بقضايا الأمة، وجرد قلمه الذي كان مسخراً للكتابة في خدمة الحكام إلى أن يكتب للأمة جمعاء، ولعل ما كتبه في رسائله بعد ذلك إلى الحكام يدعوهم إلى الوحدة وترك الفرقة خير دليل، بل كانت رسائله في وصف المصائب التي تحل بالأمة محرقة لأحاسيس الكثيرين من الأمراء فضلاً عن العلماء، ورسائله في وصف مأساة مدينة (بريشتر) ومما حل بها من قتل وتمثيل بالمسلمين من قبل النصارى ما يشيب له الولدان (حيث قُتل فيها ستة آلاف قتيل ومائة ألف سبي)<sup>(٢)</sup>، وأصبحت رسالته هذه منقولة في كتب الأدب والتاريخ لسمو لغتها وقوة عباراتها دافعاً إلى أن يتطوع الآلاف من العلماء والزهاد الذين انظموا إلى أمير سرقسطة المقتدر بن هود الذي ثارت حميته بسبب هذه الرسالة فجهز جيشاً حرر به بريشتر وأعادها إلى حياض الإسلام مرة أخرى سنة (٤٥٧هـ - ١٠٦٥م)<sup>(٣)</sup>.

ومن النصائح والوصايا التي ضمنها ابن عبد البر مقطوعة من عشرة أبيات وجهها إلى أمير إشبيلية القاضي أبي الوليد بن عباد والد المعتضد بن عباد (فقد كان الشيخ أبو الوليد صديقاً لابن عبد البر أيام طلب العلم والدراسة، فلذلك عندما

(١) ابن سعيد، ((المغرب)): (٤٠٧م - ٤٠٨هـ).

(٢) انظر ابن عذارى، ((البيان المغرب)): (٢٢٥/٣)، وانظر الحجي، ((التاريخ الأندلسي)): (٣٦٢-٣٦٦)، وانظر ليث سعد، ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ: (٦٧-٦٩).

(٣) انظر ابن بسام: ((الذخيرة)): (١٨٩/٣ - ١٩٠)، وابن عذارى، ((البيان المغرب)): (٢٢٧/٣).

وقعت الفتنة في قرطبة توجه إليه لكونه أقرب الناس إليه، فضلاً عن كونه عالماً من العلماء)، وهذه المقطوعة تعطينا صورة عن الود الذي كان بين الشاعر ابن عبد البر والشيخ أبي الوليد بن عباد، حيث كانت تتضمن بعض المعاني في الإخوانيات، فضلاً عن أدب الصحبة بين الأصدقاء بحسب مقاماتهم، فيقول له<sup>(١)</sup>:

يا سليل الكرام من آل خم وأخا الرأي والدهاء والوفاء  
إن لي مقام جسمك سقماً ثابتاً في الفؤاد والأحشاء  
وبقلبي مما بجسمك ضعف للذي تشتكي من الأدواء  
وبودي لو كنت عنك فداء بدلاً عند هجمة الضراء

وقد جمعت هذه الأبيات عاطفة الصداقة، ومخاطبة الأمراء في نظم يدل على صدق العاطفة، وقوة الرابطة التي يحوطها الوفاء، والأصالة والنسب، ثم يتوجه بنصيحته الطبية التي تدل على ثقافته في الجانب الطبي - يعزز ذلك بنقله عن الحكماء والأطباء هذه النصائح - فهو يشخص الداء (الإسهال) وينبهه إلى ترك بعض الأطعمة المؤثرة على الإسهال مثل: أنواع الحساء والخضروات، ويبين له ضرورة الوقاية (الإحتماء) وذلك بمعالجة المرض بضده، فلا يستعمل الطعام الذي يزيد المرض، ويراعم نفسه التي تقبل على الطعام والممنوع، وينصحه باتباع نظام خاص في الطعام والتغذية، ففي ذلك حسم للداء، ويؤكد له على أصل الشفاء وهو: الدعاء من الله الشافي، ولا ينسى أن يذكره - وهو أمير إشبيلية - بأن يتوب من كل أنواع الظلم إن وجد، وأن يوسع دائرة الخير والبر بالأمة فإن هذه الأشياء توصل للشفاء (الدواء، والغذاء، والدعاء، والتوبة، وعمل الخير).

(١) ((بهجة المجالس)): (٣٩١/١)، طبعة بيروت، تحقيق الخولي.

ومن وصايا ابن عبد البر ونصائحه في الحث على العلم وبيان فضله قوله<sup>(١)</sup>:

العلم يرفع كل بيت هين      والفقه يجملُ بالليب الدين  
والحر يكرم بالوقار وبالنهى      والمرء تحقره إذا لم يرزن  
فإذا طلبت من العلوم أجلها      فأجلها عند التقى المؤمن  
علم الديانة وهو أرفعها لدى      كل امرء متيقظ متدين

فبين ابن عبد البر أن العلم هو الذي يرفع مكانة المرء في الدُّنيا والآخرة، والفقه في الدين يجمل الإنسان، ويجعل سلوكه رزناً بما منحه الله من التوفيق وحسن النظر، ويلقى عليه الهيبة والوقار، لذا فأول العلوم وأرفعها التي يجمل بالمسلم طلبها هي العلوم الإسلامية، وما أطلق عليه علم الديانة (أي العقائد، والفقه، وعلوم القرآن، والحديث، ثم ما يتعلق بها مثل علوم اللغة والتاريخ والمنطق).

ويوجه ابن عبد البر النظر إلى أهمية الكتاب في البناء الثقافي للفرد فضلاً عن كون قراءة الكتب فيها ترويح عن النفس، فيقول<sup>(٢)</sup>:

يسلي الكتاب هموم قارئه      ويبين عنه إن قرأ نصبه  
نعم الجليس إذا خلوت به      لا مكروه تخشى ولا شغبه

وقد لخص ابن عبد البر الوالد كل هذه المعاني العميقة والنصيحة الصادقة في بضعة أبيات هي نموذج راق في النصيح، وبخاصة مع الأمراء، فهي تدل على عدم تقلقه، وعلى حكمته في النصيحة، والأبيات هي:

(١) هذه الأبيات عارض فيها من يقول بتقديم اللغة العربية على العلوم الشرعية، انظر «جامع بيان العلم»: (٥٦/١)، طبعة المنيرية.

(٢) «جامع بيان العلم»: (٢٠٤/٢).

فاقبل النصح سيدي واسمع القو      ل فإني أحكي عن الحكماء  
 لا يداوي الإسهال بالإحتساء      لا ولا بالأوراق والباقلاء  
 إنما الطب طردك الضد بالضد      بد ودفع الأهواء بالاحتماء  
 حسم ذا الداء ما كان قوتا      يألف الطبع في قوام الغذاء  
 وعليك الدعاء فالله يشفي      ليس شاف سواه من كل داء  
 نعم عون العليل توبة صدق      وكذا البر جالب للشفاء  
 وسلام عليك مني دأبا      ما جرى الدمع قاطعا للسماء

### ثالثا - الإخوانيات:

وابن عبد البر كان ينطلق في بعض تصرفاته مع بعض الناس من مفهوم الأخوة التي تربطه بهم؛ لذلك تجده عند وقوع الفتنة في قرطبة توجه نحو إشبيلية التي تولى إدارتها صديق دراسته الشيخ القاضي أبو الوليد بن عباد (ت ٤١٤هـ) والقصيدة التي ذكرت سابقاً والتي تتضمن نصح ابن عبد البر لصديقه أبي الوليد ابن عباد حاكم إشبيلية، والتي أعطاه فيها بعض الصفات الطيبة والإرشادات، فالأبيات الأولى من تلك المقطوعة كانت تتضمن مشاعر ابن عبد البر الأخوية تجاه أبي الوليد بن عباد، ويصح وصفها بالإخوانيات وتصنيف تلك الأبيات ضمن هذا الغرض، والأبيات وردت في الغرض السابق ويكتفي بها هناك.

ومن الإخوانيات ما قاله ابن عبد البر عند زيارته لأحد تلاميذه الذين كان يبرهم بالزيارة، مثل زيارته لعبد العزيز بن ثابت بن سليمان الأموي، وهو من أهل شاطبة المشهور بابن الروش (ت ٤٩٦هـ)، وقد صحب ابن عبد البر سنين عدة وسمع منه سنة (٤٥٣هـ)، وسمع من ابن عبد البر مرة أخرى مع ابنه عبد الرحمن بن عبد العزيز سنة (٤٦٠هـ) وكان ابن عبد البر يبر تلامذته بالزيارة، وفي إحدى هذه الزيارات

روى عبد الرحمن - وكان صغيراً - هذا البيت الذي يدل على شدة الصلة بينهما، وهذا ما يعبر عنه البيت حيث قال ابن عبد البر<sup>(١)</sup>:

ليس المزار على قدر الوداد ولو كنا كفيين كنا لا نزال معا

فالبيت مقعم بالمشاعر والود الصادق، الذي يدل على صفاء العلاقة بينهما، وتدل على تواضع ابن عبد البر، وطبيعة شخصيته الإيجابية المؤثرة حيث كان يزور تلامذته وأصدقائه، ويجيز لهم الرواية ولأبنائهم، كما جاء في هذه القصة.

وبين ابن عبد البر ببلاغة قوة هذه الصلة المتصلة غير المنفصلة، بأن الزيارة وحدها لا تكفي وهي لا تكافيء مقدار الود الذي يحسه من خلال تشبيه مستحيل يعزز هذه الصلة والمودة، ويؤكد بأنهما وهو ابن اثنتين وتسعين سنة وصاحبه عبد العزيز - لو كانا ظلين من غير أجسام - ويستحيل ذلك - لبقيا معا والتقيا دائماً لشدة الود بينهما.

#### رابعاً: الفخر والإعتزاز بالنفس:

ومن الأغراض التي نظم فيها ابن عبد البر شعره الفخر، وهو غرض مطرد في الشعر الأندلسي خاصة والعربي عامة، وهو لا يدل على التكبر أو الغرور في أكثر الأحيان وإنما يعبر فيه الشاعر عن اعتزازه بعلمه أو نسبه، وأنفته ورفضه الذل والصغار، ومن ثم هو غط من التحديث بنعمة الله.

وأبو عمر ابن عبد البر كان فخر الأندلس في كثير من العلوم فضلاً عن طيب أرومته ونسبه، لذا فقد تسابق أمراء الأندلس على الحضوة به ليكون في حاشيتهم

(١) انظر ابن بشكوال: ((الصلة)): (٣٤٦)، وشكيب أرسلان، ((الخلل السندسية في الأخبار والآثار

الأندلسية)): (٢٦٠/٣)، طبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة، (١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م)، ط ١.

وليزين بحضوره مجالسهم، وقد دعاه كثير منهم للإقامة بين ظهرا نهم بعد سقوط قرطبة، وتلقى أبو عمر بن عبد البر رسائل من بعضهم يدعوه ليكون ضيف شرف يحلّ في قصورهم، وكان أبو عمر يختار النزول في ضيافة من تطمئن إليه نفسه تحرياً للبعد عن الفتنة واختيار الأمثل النسبي من الأمراء والأخذ بأقل الضررين وأقل المفسدين، وفي المقطوعة التالية يفتخر بما منّ الله عليه من العلم الذي أهله لينال الخضوة والاحترام من قبل الأمراء الأندلسيين، وهو في فخره هذا يقدم النصيحة لابنه من خلال شخصه ليدفعه إلى الإهتمام بالعلم، فيقول<sup>(١)</sup>:

إذا فاخرت فافخر بالعلوم      ودع ما كان من عظم رميم  
فكم أمسيت مطرّحاً بجهل      وعلمي حل بي بين النجوم  
وكم من وزير سار نحوي      فلازمني ملازمة الغريم  
وكم أقبلت متشداً مهاباً      فقام إلي من ملكٍ عظيم

وبين له كيف أن مكانته العلمية جعلت الوزراء والأمراء يطلبون ملازمته لعلمه، كما فعل مجاهد العامري أمير بلنسية الذي لازم حلقة ابن عبد البر في علم القراءات وغيره.

ويضرب أبو عمر لابنه مثلاً آخر يبين احترام الأمراء له وذلك عند قدومه على المعتضد بن عباد، المعروف بالفتك، للتشفع لإطلاق سراح الابن حيث دخل على المعتضد وهو يصيح: ابني يا معتضد...!! ابني يا معتضد...!! فقام إليه المعتضد مرحباً طالباً منه المكوث في إشبيلية. فيقول ابن عبد البر:

وكم أقبلت متشداً مهاباً      فقام ألي من ملكٍ عظيم

(١) ابن سعيد ((المغرب)): (٢/٤٠٧-٤٠٨).

ثم يبين الأسباب التي أوصلته إلى هذه المنزلة التي يفتخر بها والأخلاق التي تحلى بها وهي:

١- التميز العلمي والبروز فيه جعل له الهبة والمكانة والإحترام.

٢- التعفف عن السؤال وعدم إهانة النفس.

٣- اكتساب الحلال بالعمل، والبعد عن الحرام.

٤- الحصول على حد الإكتفاء الذي يغطي حاجة عياله، وهذه الأخلاقيات إذا التزمها العالم فإنها تحفظ ماء وجهه مما يجعله محبوباً بزهده بما في أيدي الناس.

ويعزز هذه العزة الرضى بما قضى الله له من طبيعة يحياها، وتجعله مترفعاً عن بذل نفسه بصورة مهينة، والأبيات التي قالها<sup>(١)</sup>:

تعفف المرء عن سؤاله      وكسبه الحل باحتياله  
وسعيه في صلاح عيش      لمن يواريه من عياله  
مروءة وبالع بها      من يبلغها منتهى كماله  
ومن يصن وجهه يزنه      صيانة الوجه من جماله  
رضى الفتى بالقضاء عز      وذلة الوجه في ابتذاله

وابن عبد البر كان عزيزاً بنفسه ويعلمه، ويأبى الهوان وبذل ماء الوجه حتى لو أدى إلى ترك المكان الذي يجد فيه العيش الجيد، فقال يوم أن تغير عليه المعتضد بن عباد عقب توليه بعد والده إسماعيل بن عباد<sup>(٢)</sup>:

(١) ((بهجة المجالس)): (١/١٦٥).

(٢) المصدر نفسه: (١/٢٤٣)؛ وأبو البقاء الرندي (ت ٦٨٤هـ): ((روض الأنس))، مخطوط في معهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٢ مغرب أولى/مكتبات خاصة.

تنكر من كنا سر بقربه وعاد زعافا بعد ما كان سلسلاً  
 إذا هان حر عند قوم أتاها ولم ينأ عنهم كان أعمى وأجهلاً  
 لا ترض من دنياك ما أدناك من طمع وكن طيفاً جلاً وتحولاً  
 للفقير لا للفقير فيها إنها مغناك ما أغناك أن تتوسلاً  
 لأن كرامته فوق كل شيء:

وإذا الكريم رأى الغرير قرينه في منزل فالحزم أن يترحلاً

وإن الرحيل إذا كان فيه حفظ كرامته فلا ضير في ذلك، لأن البدر لكي يحافظ على كماله؛ فإنه يتنقل في المنازل المتنوعة ليعود بدرأ مرة أخرى.

ثم لأن السيف لن تعرف حقيقته، ولا لمعانه، ولا كماله من العيوب حتى يخرج من قرابه، فيشبه ابن عبد البر نفسه بهذا السيف الصقيل السليم من الكلوم في حدته فإنه لا تعرف حقيقته إلا بعد مفارقتة لغمده؛ لذا فالسفر وترك المكان سيشعر المعتضد بن عباد بقيمة ابن عبد البر؛ لأن المعتضد قد تغير في معاملته له لعدم معرفة فضله كما كان يعرف له القاضي إسماعيل بن عباد والد المعتضد.

وحصل هذا بالفعل، فبعد انتقال ابن عبد البر إلى الشرق إلى بلنسية أرسل المعتضد إليه الرسائل يدعو به إلى الرجوع والإقامة في إشبيلية مرة أخرى طمعاً في قربه والانتفاع بعلمه، والتشرف بفضله ووجوده في رعايته، كما رأينا فيما سبق كيفية استقبال المعتضد لابن عبد البر عند شفاعته لابنه وقدمه إشبيلية لأجل ذلك.

وقد افتخر ابن عبد البر بكتابه «التمهيد» الذي صار حديث أهل الأندلس، والذي يدل على المكانة العلمية لابن عبد البر، وقد شهد ابن حزم بذلك، وكفى بأبي محمد شاهداً، وهو الذي ما نحى من نقده أحداً إلا القليل، ومن هؤلاء القليل شيخه وصاحبه أبو عمر بن عبد البر، حيث قال ابن حزم: «لا أعلم في الكلام على



فقه الحديث مثله أصلاً فكيف أحسن منه؟»<sup>(١)</sup>.

وقد أمضى ابن عبد البر في شرح الموطأ ثلاثين عاماً، حيث كان يحسن ويغير وينتقي، وقد رصد محققوا التمهيد هذه الظاهرة.

يقول أبو عمر<sup>(٢)</sup>:

سمير فزادي من ثلاثين حجة وصاقل ذهني والمفرج عن همي  
بسطة لهم فيه كلام نبيهم لما في معانيه من الفقه والعلم  
وفيه من الآداب ما يهتدي به إلى البر والتقوى ونهي عن الظلم

### خامساً - الهجاء والنقد:

الهجاء والنقد غرض من أغراض الشعر، وهو أولاً إما أن يكون وليد الإحساس بالظلم، أو رصد ظاهرة سلبية اجتماعية، أو ثقافية، أو سياسية، أو أخلاقية، تدفع الشاعر إلى نقدها لخطورتها على المجتمع الإسلامي<sup>(٣)</sup>.

أو أنها تتوجه إلى أفراد بعينهم لسلوكهم تلك الظواهر، وكونهم المسهمين في إشاعة السلبيات في المجتمع المسلم، أو تكون لسوء علاقة شخصية بين الشاعر والمهجو، وهذا النمط إما أن يكون من قبيل ردة الفعل، وهذا هو الأكثر شيوعاً في الشعر الأندلسي<sup>(٤)</sup>، وإما أن يكون الهجاء باباً للتكسب وهذا من الشذوذ بمكان في

(١) الدكتور إحسان عباس: «تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف»: (٣٥٩).

(٢) القاضي عياض اليعصبي: «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك»، تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود، طبعة بيروت، (١٣٨٤هـ-١٩٩٥م).

(٣) انظر الدكتور منجد مصطفى بهجت، «الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي»: (٣٤١-٣٤٢).

(٤) المصدر نفسه: (٤٥١-٤٥٣).

المجتمع الإسلامي عامة وفي الأندلس خاصة، ويشيع عندما يكون هناك انحراف عن الخط الأخلاقي الإسلامي في المجتمع المسلم، أو أن يكون الشاعر الهجاء ذو طبيعة عدوانية أو ذو نفسية مريضة.

والذي يدل على أن الشعراء الأندلسيين لم يتطرقوا إلى شعر الهجاء من النوع الأول قول ابن حمديس:

عفاف اللسان مقال الجميل      وفسق اللسان مقال القبيح  
ومالي وما لامرئ مسلم      يروح بسيف لساني جريح

وابن عبد البر ممن نزه نفسه عن غرض الهجاء الشخصي وإنما جعل هجاءه نقداً اجتماعياً لظاهرة سلبية، وقد تكون هذه الظاهرة عامة أو في شريحة خاصة فينقدها، وابن عبد البر في نقده لا يذكر أشخاصاً بأعيانهم، وإنما كان في أسلوبه يتبع النهج النبوي في النقد بقوله: «(ما بال أقوام..؟)»، فالقصد التصحيح والتوجيه للأفراد، وذم الظاهرة السلبية لغرابتها عن المنهج الإسلامي في الحياة.

الظواهر السلبية التي نقدها ابن عبد البر:

وقد تناول ابن عبد البر بعض الظواهر العامة، والتي فشت وبخاصة في الفترة التي عاصرها، فترة الفتنة التي أدت إلى تمزيق الأندلس وجعله دويلات بعد الدولة الواحدة، وشيوع بعض الممارسات والأخلاق والمفاهيم السلبية ومن ذلك:

نقده لمرض حب الرياسة: الذي أصاب الحياة السياسية وأدى إلى الصراع على السلطة وتمزيق الأندلس وتعذر معه توحيده مرة أخرى بسبب هذا الداء، فيقول<sup>(١)</sup>:

(١) «(جامع بيان العلم): (١/٤٣-١/٤٤)، طبعة المنيرية.

حب الرئاسة داء يخلق الدينا      ويجعل الحب حرباً للمحينا  
يفري الحلاقم والأرحام يقطعها      فلا مروءة تبقى لا ولا دينا  
من ساد بالجهل أو قبل الرسوخ      فلا تراه إلا عدوا للمحينا  
يبغي ويحسد قوماً وهو دونهم      ضاهى بذلك أعداء النينا

فبين أن علة هذا الداء هو الجهل والحسد، ومن ثم البغي والإعتداء، ثم انخطاط  
المكانة الاجتماعية، وعقدة النقص تؤدي إلى إثارة المصالح الشخصية على مصلحة  
المجتمع، مع وجود الأمثل.

### نقده لظاهرة التعصب المذهبي:

وهي ظاهرة ثقافية خطيرة في المجتمع الأندلسي خاصة والمجتمع الإسلامي عامة،  
وهي تؤدي بدورها إلى حالة ركود فقهي أو ثقافي تمنع مواصلة المسيرة الصحيحة في  
ممارسة الإجتهد القائم على الأسس الشرعية الضابطة للفوضى الفقهية، وقد  
شخص أبو عمر ابن عبد البر ظاهرة التقليد وحللها في كتابه القيم «جامع بيان  
العلم»<sup>(١)</sup>، والتي فرق بينها وبين إتباع العامة لأئمة المذاهب وتقليدهم، فوضح ابن  
عبد البر بأن التقليد هو الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه - وذلك ممنوع منه في  
الشرعية<sup>(٢)</sup> وبخاصة لأهل العلم والتخصص إذا بان لهم بالدليل بطلان قول من  
يقلدون - لمخالفته الكتاب أو السنة أو الإجماع.

وأما المقلدون (أي غير العلماء) فيقول أبو عمر بن عبد البر<sup>(٣)</sup>:

(١) (١٠٩/٢-١١٩)، طبعة المنيرة.

(٢) المصدر نفسه: (١١٧/٢).

(٣) المصدر نفسه: (١١٤/٢-١١٥).

«ولم تختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها عند النازلة تنزل لها؛ لأنها لا تبين موقع الحجة، ولا تصل بعدم الفهم إلى علم ذلك، لأن العلم درجات، وأنهم المرادون بقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وكذلك لم تختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا وذلك - والله أعلم - لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحريم والقول في العلم».

وأما إذا كان المقلد عالماً بدليل إمامه فذلك اتباع وليس تقليداً.

وقد رصد ابن عبد البر هذه الظاهرة التي تفاقمت بعد عصره وبخاصة في فترات الركود العلمي فيقول<sup>(١)</sup>:

يا سائلي عن موضع التقليد خذ	عني الجواب بفهم لب حاضر
وأصخ إلى قولي ودن بنصحتي	واحفظ عليّ بوادري ونوادري
لا فرق بين مقلد وبهيمية	ينقاد بين جنادل <sup>(٢)</sup> ودعائر <sup>(٣)</sup>
تبالقراض أو لمفت لا يرى	عللا ومعنى للمقال السائر
فإذا اقتديت بالكتاب وسنة	المبعوث بالدين الحنيف الطاهر
ثم الصحابة عند عدمك سنة	فأولاك أهل نهى وأهل بصائر
وكذاك إجماع الذين يلونهم	من تابعهم كابر عن كابر
إجماع أمتنا وقول نبينا	مثل النصوص لدى الكتاب الزاهر
وكذا المدينة حجة إن أجمعوا	متابعين أوائل بأواخر
وإذا الخلاف أتى فدونك فاجتهد	ومع الدليل فمل بفهم وافر

(١) المصدر نفسه: (١١٥/٢).

(٢) الأرض المليئة بالصخور ((لسان العرب)): (٦٩٩/١).

(٣) الأرض المليئة بالحفر، نفس المصدر: (١٣٧٨/٢).

وعلى الأصول فقس فروعك لا تقس فرعا بفرع كالجھول الحائر  
والشر ما فيه فديتك أسوة فانظر ولا تحفل بزلّة ماهر

وبهذه الأبيات حدد أبو عمر بن عبد البر مفهوم التقليد المذموم، وهو تقليد العلماء القادرين على التمييز بين الأدلة وإصرارهم على عدم اتباع الدليل مع وضوحه ونصاعته، ومحاولة تأويل الخطأ بغير دليل، فإن هذا ظاهرة خطيرة تهدد الحياة الإسلامية إذا لم يستمر أهل الفقه والعلم بإثراء المجتمع الإسلامي باجتهاداتهم الملمية لحاجاته.

### نقده لظاهرة الرياء الثقافي:

والظاهرة الثقافية الأخرى التي نقدها ابن عبد البر هي ظاهرة الرياء الثقافي<sup>(١)</sup>، والتي ظهرت بعد الفتنة في الأندلس وصارت قيمة المرء فيما يجمعه من كتب للمباهاة، وكذلك جعل العلم والأدب وسيلة للارتزاق وجمع المال، ونقد كذلك ظاهرة الكسل العلمي المنتشرة بلباس الحياء والزهد في الكلام، وهذا زهد مرجوح، وعي مذموم؛ لأن الحياء لا يمنع العلم بل يزكيه، فيقول في ذلك<sup>(٢)</sup>:

يا من يرى جمع المال والكتب خدعت والله ليس الجسد كاللعب  
العلم ويحك ما في الصدر تجمعه حفظاً وفهماً واتقاناً فذاك أبي  
لا ما توهمه العندي من سفه إذ قال ما تبتغي عندي وفي كتب

ثم يشجع أبو عمر بن عبد البر وينصح طلبة العلوم الشرعية بالإهتمام بعلوم

(١) انظر ((جامع بيان العلم وفضله)) طبعة المنيرية: (١/٨٧-٩٢)، وقد أفرد باباً بعنوان ((باب حمد السؤال

والإحاح في طلب العلم وذم ما منع)).

(٢) نفس المصدر: (٩١-٩٢).

السنة لأهميتها في البناء العلمي؛ لكون السنة هي وحي الله إلى النبي ﷺ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ١٤]، وقد نظم هذين البيتين على صورة ضوء قول التابعي محمد بن سيرين في قوله: «كانوا يرون أنهم على الطريق ما داموا على الأثر»<sup>(١)</sup>، فقال:

مقالة ذي نصح وذات فوائد إذا من ذوي الألباب كان استماعها  
عليكم بآثار النبي فإنها من أفضل أعمال الرشاد اتباعها

وقد كان شغف ابن عبد البر بالسنة وافرا وصار علماً عليها في ديار الأندلس ولقب بحافظ المغرب، وبخاري المغرب، وأخرج لنا كتباً عظيمة لا زالت تفيض بالعلم، وشهد العلماء بفضلها وأهميتها وتميزها بين المؤلفات الأخرى، ومن أهم هذه المؤلفات «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»، حيث يعطي ابن عبد البر فيه القدوة لمن يهتم بالتأليف ويشجع الأجيال الجديدة على حب التأليف والبحث، حيث يقول:

سمير فؤادي من ثلاثين حجة وصاقل ذهني والمفرج عن همي  
بسطت لهم فيه كلام نبيهم لما في معانيه من الفقه والعلم

بل يوظف علم السنة في تربية الأمة فيقول:

وفيه من الآداب ما يهتدى به إلى البر والتقوى ونهي إن الظلم

ثم يربط بين العلم والحث عليه وأثر ذلك في مستقبل حياته في الدنيا وفي ميزان عمله بعد موته في الآخرة. فإذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث.. وعلم

(١) «جامع بيان العلم»: (٥٣/٢)، طبعة المنيرة، وانظر: التلمساني، «نفح الطيب»: (٣٢٧/٤).

ينتفع به<sup>(١)</sup>، فيقول<sup>(٢)</sup>:

تذكرت من يبكي عليّ مداوما فلم ألف إلا العلم بالدين والخبر  
علوم كتاب الله والسنن التي أتت عن رسول الله في صحة الأثر  
وعلم الأولى قرن فـقرن وفهم ما له اختلفوا في العلم بالرأي والنظر

فذكر ابن عبد البر أن كتبه، والعلم الموسوعي الذي خلفه في علوم القرآن، والسنة النبوية، والتاريخ والفقه المقارن، وعلم الخلاف، هي التي ستشهد له، فيذكره من يقرأ آثاره ومؤلفاته فيدعو له، وستشهد له هذه الكتب في علومها المختلفة بين يدي الله تعالى متضرعة باكية تشفع له، وهنا كناية كذلك على أن العمل الصالح هو الذي ينفع ابن آدم بعد موته: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وفي ذلك كله وعظ لأهل زمانه من العلماء وطلبة العلم؛ ليحثوا الخطى في القيام بواجبهم في خدمة كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من خلال الكتابة والتأليف في العلوم المتنوعة، التي ستكون رحمة لهم في الدنيا بعد وفاتهم، وشفاعة لهم في الآخرة يوم يقوم الحساب: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ \* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وعمل يخدم الأمة بعد وفاته.

(١) أخرجه البخاري في المرضى: (١٠/٧)، طبعة تركيا، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار، حديث رقم (٤٨٤٣).

(٢) ((بهجة المجالس)): (٢٤/١)، وأحال الدكتور منجد مصطفى بهجت إلى مخطوط (تذكرة العلماء والشعراء) لمؤلف مجهول صورة من المخطوط في دار الكتب المصرية برقم (٩١٠٩ أدب)، انظر ((الإتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي)): (٢٣٩).

## سادساً - الوصف:

ومن أغراض الشعر التي نظم فيها ابن عبد البر الوصف وهو غرض اشتهر به الأندلسيون وعرفوا بدقة الوصف وجمال التصوير مع أنه «أصعب أنواع الشعر مثلاً وأعزها مطلباً إذ لا يحسن حتى يدق التشبيه ويسبح الخيال ويندر المجاز وتغرب الإستعارة»<sup>(١)</sup>.

وقد ساعد على ذلك جمال الأندلس الطبيعي من جبال وأشجار ومروج وأنهار وأطيار فضلاً عن مجالس الأدب والمؤانسة التي تدفعهم للإتيان بكل ظريف وطريف. وقد أسهم ابن عبد البر في هذا الباب من أبواب الشعر ومن جميل وصفه وأظرفه وصفه للبعوض<sup>(٢)</sup> وبخاصة بعوض مناطق: قبتور، وقبيل، والشرف<sup>(٣)</sup>، وهي المناطق التي مر بها خلال رحلته من قرطبة إلى إشبيلية ثم مروره بالشرف، وقبتور وقبيل في اتجاهه إلى بطليوس التي كانت المكان الذي برزت فيه ملكته الأدبية من خلال مجالس المتوكل بن الأفطس الأدبية والتي كانت ثمرتها كتابه «بهجة المجالس».

ويقدم لنا ابن عبد البر صورة تمثيلية ساخرة عن صراع البعوض والناس في تلك المناطق وما كانوا يستعملونه من وسائل للإتقاء منه أو للتخلص من لسعه ولكن لا نجاة لأحد منه، فخرطومه كالسيف، وهجومه مثل النسر الجائع، كما وصفه،

(١) عبد العزيز محمد عيسى، «الأدب العربي في الأندلس»: ص (١١٧).

(٢) «بهجة المجالس»: (٢/ ١٠٥)، ط ١. وابن خاقان: «مطمح الأنفس»: (٢٩٥).

(٣) قبتور وقبيل قرى من إقليم الشرف الكبرى في غرب الأندلس، والشرف إقليم جبلي من أقاليم إشبيلية الكبرى، حيث كان يضم ثمانية آلاف قرية، وطوله (٨٠) ميل، وعرضه (١٢) ميل، وسمي بالشرف لأنه يشرف على مدينة إشبيلية، أبي عبد الله الحميري: «الروض المعطار»: (١٠١، ١٤٩، ١٥٠)، تحقيق بروفنسال: نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة: (١٩٢٧م).



ولشدة قرصه يدفع الناس إلى لطم وجوههم لمحاولة التخلص منه، أو أن يختفي الناس منه تحت الثياب أو الأغطية ولكنه يخرق ذلك كله بل حتى الدخان لا ينفع في إبعاده مما جعل الناس ترك ساحل البحر هرباً من البعوض وتسكن قرب الجبال، والمقطوعة التي قالها هي:

بعوض قبتور والقبطيل والشرف	قد آذنت بذهاب النفس والتلف
فمن مثير دخان يستجير به	وآخر يختفي في الثوب ملتحف
قد غيب الرأس والرجلين مستتراً	بالبيت من طرف فيه إلى طرف
ويلي من الجرجس <sup>(١)</sup> عقربه	ينصب مثل عقاب جاع مختطف
يؤم أذني هجماً كالمهدي لي	وكلما نادي بأخذ الهارب النطف
خرطومه كسنان لا يقوم له	ثوب مثني ولو قد كان من خزف
ياويله من عدو لست تدفعه	إلا بلطم على الأعضاء منصرف
نفى البعوض أناساً من مساكنهم	على البحيرة في غرب من الشرف
وساحل البحر طويلاً أصل منبته	يعشي المدينة في الأبيات والغرف
وليس عنهم بستر أو مدافعة	أو حيلة قد أعدوها بمنحرف

وله في وصف كتابه «التمهيد» الذي قضى ثلاثين عاماً في تأليفه يعبر فيه عن حبه لهذا الكتاب ومكانته في قلبه وأنسه به، فيقول:

سمير فؤادي من ثلاثين حجة	وصاقل ذهني والمفرج عن همي
بسطة لهم فيه كلام نبهم	لما في معانيه من الفقه والعلم
وفيه من الآداب ما يهتدي به	إلى البر والتقوى ونهي عن الظلم

(١) الجرجس: وقيل قرقس وهو البعوض الصغار، ابن منظور: «(لسان العرب)»: باب جرج، طبعة دار المعارف: (٥٨٦/١).

## سابعاً- الشعر التعليمي:

ومن أغراض الشعر عند ابن عبد البر: الشعر التعليمي وكان يغلب على أكثر المقطوعات التي نظمها، وليس ذلك بغريب فتخصصه وانصرافه إلى علوم الشريعة وتعمقه فيها جعله يوظف ملكته الشعرية في موضوعات تتعلق بالتعليم وآدابه وفضائله، والثناء على العلماء، والحث على طلب العلم، وكان الأسلوب الشعري يسهل عليه نقل كثير من المعاني بأسلوب سلس مشوق يسهل تناوله، وقد كان كتاب أبي عمر «جامع بيان العلم وفضله» موسوعة شعرية بكل ما يتعلق بالدعوة إلى العلم وآدابه والذي استشهد فيه بكثير من الأشعار له ولغيره، وترجم فيه مجموعة كبيرة من الشعراء، مع نقد لأشعارهم وتضمنياتهم، وقد جعل الدكتور منجد مصطفى بهجت ابن عبد البر محور هذا الغرض الشعري في كتابه «الإتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي»<sup>(١)</sup>.

فابن عبد البر يجعل مناط الفخر والإعتزاز هو العلم، فيقول<sup>(٢)</sup>:

إذا فاخرت فأفخر بالعلوم      ودع ما كان من عظم رميم  
فكم أمسيت مطر حاً بجهل      وعلمي حل بي بين النجوم  
وكم من وزير سار نحوي      فلازمي ملازمة الغريم

ولذا فقد علت منزلته وصار مهاباً عند أمراء الطوائف مما جعل المعتضد بن عباد يقوم لاستقباله هيبة ابن عبد البر، وفي ذلك يقول ابن عبد البر:

وكم أقبلت متشداً مهاباً      فقام إلي من ملك عظيم

(١) ص: (٢٣٣-٢٣٤، ٢٣٧-٢٣٩).

(٢) ابن سعيد: ((المغرب)): (٤٠٧/٢-٤٠٨).

وركب سار في شرق وغرب بذكرى مثل عرف في نسيم

ويحث ابن عبد البر على طلب العلوم بحسب أهميتها لطالب العلوم الإسلامية، وأجلها علم الفقه وأصول الدين، وله مقطوعة يعارض فيها أحد الشعراء الذي قدم علم اللغة على أصول الدين، وهو أبو حاطب حيث قال:

وإذا طلبت من العلوم أجّلها فأجلها منها مقيم الألسن

فعارضه ابن عبد البر بقوله<sup>(١)</sup>:

العلم يرفع كل بيت هين	والفقه يجمل بالليب الدين
الحر يكرم بالوقار وبالنهي	والمرء تحقره إذا لم يرزن
فإذا طلبت من العلوم أجّلها	فأجلها عند التقى المؤمن
علم الديانة وهو أرفعها لدى	كل امرئ متيقظ متدين
هذا الصحيح ولا مقالة لجاهل	فأجلها منها مقيم الألسن
لو كان مهتدياً لقال مبادرا	فأجله منها مقيم الأدين

ثم يصوغ شعراً مقولة لمحمد بن سيرين: «كانوا يرون أنهم على الطريق ما داموا على الأثر»<sup>(٢)</sup>، ولما كان ابن عبد البر أثرياً كما وصفه الإمام الذهبي؛ لذا فقد جعلها نصيحة يقدمها لطلابه وللمهتدين بالثقافة الإسلامية، فقال<sup>(٣)</sup>:

مقالة ذي نصح وذات فوائد إذا من ذوي الأبواب كان استماعها  
عليكم بآثار النبي فإنها من أفضل أعمال الرشاد اتباعها

(١) «جامع بيان العلم»: (٥٦/١) طبعة المنيرية.

(٢) المصدر نفسه: (٣٥/٢).

(٣) المصدر نفسه/ وانظر «نفح الطيب»: (٣٢٧/٤).

وعمد ابن عبد البر إلى مجموعة من المعاني المهمة في طلب العلم والآداب الضرورية للمتعلم، فيقول: «لا يستطيع العلم براحة الجسم»، وذهب هذا القول مثلاً، «وقد نظمته ونظمت قول الأصمعي... ومعنى قول الحسن والخليل في الحياء» نظم ذلك في مقطوعة ينقد فيها المغرور المتعالم بقوله<sup>(١)</sup>:

يا من يرى جمع المال والكتب      خدعت والله ليس الجدد كاللعب  
العلم ويحك ما في الصدر تجمععه      حفظاً وفهماً وإتقاناً فذاك أبي  
ما توهمه العندي من سفه      ما تبتغي عندي وفي كسبي

ثم يضع ابن عبد البر منهجية طالب العلم المتخصص ويضع المعالم الهادية لعملية الإجتهد، وأن الذي ملك آلة العلم عليه أن يسلك طريق من سلف من علماء الأمة في تلبية حاجات المجتمع المسلم المتجددة من خلال الإجتهد الذي ينضبط بالأصول الحاكمة والمصادر الشرعية المعتمدة، ويوم أن يعطل العالم عملية الإجتهد ويكتفي بالتقليد فذلك لا يليق به وإنما يليق بالعامي الجاهل، الذي لا يعرف قواعد الأحكام وموارد الإجتهد. وبالتالي فالذي يملك القدرة على معرفة الأدلة ومناهج العلماء، وبلغ درجة النظر فلا يليق به أن يضع نفسه في مرتبة المقلد الجاهل، ولذلك نجد ابن عبد البر يغفل له القول لأن الأمة في حاجة إليه وإلى الإجتهد الذي يعبر عن حيوية هذا الدين فضلاً عن أنه في معرض توجيه طلابه الذين سألوه عن ذلك، وللاستاذ طريقته في تقبيح ما لا يليق بالعالم، وكان ابن عبد البر شيخ زمنه وعالم عصره في الأندلس، فإن خرجت نصيحته فيها شيء من القسوة فذلك مقبول منه لخطورة الأمر ولفضل الناصح ومكانته.

يقول الإمام ابن عبد البر:

(١) المصدر نفسه: (٩١/١-٩٢).

يا سائلي عن موضع التقليد خذ  
وأصخ إلى قولي ودن بنصحتي  
لا فرق بين مقلد وبهيممة  
تبا لقاض أو لملت لا يرى  
فإذا اقتديت بالكتاب وسنة  
ثم الصحابة عند عدمك سنة  
وكذاك إجماع الذين يلونهم  
إجماع أمتنا وقول نبينا  
وكذا المدينة حجة إن أجمعوا  
وإذا الخلاف أتى فدونك فاجتهد  
وعلى الأصول فقس فروعك لا تقس  
والشر ما فيه فديتك أسوة  
عني الجواب بفهم لب حاضر  
واحفظ عليّ بوادري ونوادري  
منقاد بين جنادل ودعائر  
عللا ومعنى للمقال السائر  
المبعوث بالدين الحنيف الطاهر  
فأولئك أهل نهى وأهل بصائر  
من تابعيهم كابرا عن كابر  
مثل النصوص لدى الكتاب الزاهر  
متابعين أوائل بأواخر  
ومع الدليل فمل بفهم وافر  
فرعا بفرع كالمجهول الحائر  
فانظر ولا تحفل بزلة ماهر

بهذه الطريقة التعليمية المشوقة كان يقدم ابن عبد البر منهجية العلم إلى طلابه ليسهل فهمها وحفظها، وهي وسيلة من وسائل تدريس المفردات العلمية، وظّف فيها ابن عبد البر ملكته الشعرية لإيصال مفهوم خطير ومهم إلى أذهان أهل التخصص من طلبة العلم، وأهم محاور عملية الاجتهاد كما بينها في هذه الأبيات هي:

١- معرفة علل الأحكام.

٢- الاعتماد على المصادر الأصلية في الاجتهاد:

أ- الكتاب.

ب- السنة.

ج- الإجماع.

٣- بين أهمية معرفة المصادر الثانوية ويرتبها ابن عبد البر على منهج الإمام مالك، لكونه مالكي المذهب، وأهم هذه المصادر عنده:

أ- عمل الصحابي.

ب- إجماع التابعين.

ج- عمل أهل المدينة.

ثم يبين مسار عملية الإجتهد عند الخلاف بين الأئمة فيوجه ابن عبد البر المتصدي لعملية الإجتهد بأن يتعرف على:

١- الدليل في المسألة.

٢- أن يتبع عملية قياس الأصول على الفروع، وليس الفروع على الفروع.

٣- عدم التعصب لإمام ماهر إن وجدنا في مسألة ما عنده خطأ أو زلة أو شذوذ، فكل أحد يؤخذ منه ويرد عليه، إلا المعصوم ﷺ.

ويُرغَّبُ ابن عبد البر طلاب العلم والمعرفة إلى أهمية الكتاب في تنمية شخصية العالم وغيره؛ لأن الكتاب هو آلة المعرفة، وكلما أقبلت الأمة على القراءة كانت في خير؛ لأن هذا السلوك الحضاري له أثره على مجموع الأمة في حياتها وتطوير أنشطتها المتنوعة في جميع الجوانب. فضلاً عن أن القراءة فيها أثر نفسي إيجابي في جعل شخصية الفرد شخصية مستقرة غير قلقة وتدفعها للعطاء فيقول<sup>(١)</sup>:

يُسلي الكتاب هموم قارئه      وبين عنه إن قرأ نصبه  
نعم الجليس إذا خلوت به      لا مكره تخشى ولا شغبه

(١) انظر «جامع بيان العلم وفضله»: (٢/٢٠٤).

ثم يختم ابن عبد البر توجيهاته لطلاب العلم والعلماء ببيان حقيقة الحياة والموت وأن ما ينفع الإنسان بعد رحيله هو العلم، فهو الذي سيدافع عنه بين يدي الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. فيقول ابن عبد البر<sup>(١)</sup>:

تذكرت من يكي على مداوما فلم ألف إلا العلم بالدين والخبر  
علوم كتاب الله والسنن التي أتت عن رسول الله في صحة الأثر  
وعلم الأولى قرن فـقرن وفهم ما له اختلفوا في العلم بالرأي والنظر

### ثامناً- التشكي:

ولابن عبد البر نظم في التشكي من الناس أهل الثرثرة الذين ينقدون أو يشوهون صورة غيرهم، وبخاصة العلماء المعروفين؛ فلذلك يبدو أن ابن عبد البر قد تعرض لمثل هذا الهجوم إذا يقول<sup>(٢)</sup>:

ولست بناج من مقالة طاعن ولو كنت في غار على جبل وعر  
ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً ولو غاب عنهم بين خافقي نسر

ولعل أبا عمر بن عبد البر يرد في هذين البيتين على أبي الفضل يوسف بن محمد القيرواني المعروف بابن النحوي (ت ٥١٣هـ) الذي كان يذم أبا عمر، وقد قيض الله لأبي عمر من يرد عنه كذلك، فهذا ابن البراء أبو العباس أحمد بن محمد بن البراء التجيبي<sup>(٣)</sup> المعدود في المجيدين من الشعراء الأندلسيين يرد على ابن النحوي

(١) ابن فرحون المالكي: ((الدياج المذهب في أخبار علماء المذهب)): (٣٧٠/٢).

(٢) ((جامع بيان العلم)): (١٧٣/٢).

(٣) انظر: ابن الأبار محمد بن عبد الله القضاعي (ت ٦٥٨هـ)، المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق إبراهيم الإياري، نشر دار الكتب الإسلامية ودار الكتاب اللبناني، بيروت، القاهرة، (١٤٠٢هـ-١٩٨٢م) ط ٢: (٦١).

القيرواني دفاعاً عن ابن عبد البر النمري لعظم مكانته وفضله في الأندلس، فيقول أبو البراء التجيبي<sup>(١)</sup>:

معتوه قسطة ينفي رياضتنا      ومن يرد قنص العنقاء لم يصد  
تفيض دون منها نفس حاسدنا      وكيف للغور يعلو ذروة السند  
تعمساً ليوسف إن مناه خاطره      لحاقنا وهل العرماض كالثمد  
باحث بذي ابن عبد البر قولته      إن الحسود من الحسود ذو حرد  
كم يتعب النفس فيما ليس يبلغه      والضبع يعظم عنها كل ذي لب  
لو حل ساحة قومي كان مطرحاً      كبهريج لحظته عين منتقد  
دعوى العلوم تحلاها فأشبههم      كما تشابه لفظ السغد والسغد

ولعلنا بهذا قد أتينا على ما نظمه أبو عمر بن عبد البر جميعه، وضمناه في هذه الأغراض التي تداخلت فيها بعض المقطوعات، وبيننا ذلك كلاً في موضعه، وهي أغراض درج الشعراء على النظم فيها؛ لأن الشعر هو المعبر عن المشاعر والأحاسيس في موقف ما، فيعبر عنه الشاعر بصادق أحاسيسه، وقد كان ابن عبد البر موفقاً وفارساً في ذلك.

### خصائص شعر ابن عبد البر:

فيما تقدم وقفنا على موضوعات شعر ابن عبد البر وأهم الأغراض التي نظم فيها وتداخل أحياناً بعض المقطوعات في أكثر من غرض لذا فقد تكرر الإستشهاد بها في موضع الشاهد.

ثم ذكرنا ثناء مؤرخي الشعر الأندلسي عليه في باب الأدباء والشعراء وبخاصة

(١) نفس المصدر: (٦٢).



كتاب «مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس» للفتح بن خاقان القيسي (ت ٥٢٩هـ) الأديب الشاعر حيث ترجم لابن عبد البر في أعيان العلماء من أهل الأندلس وأثنى على شعره وأدبه فقال: «وأما أدبه فلا تعبر لجته ولا تدحض حجته»، فشبه أدب ابن عبد البر وثقافته الأدبية بالبحر العميق الواسع الأطراف المتلاطم الأمواج، وبيننا ذلك من خلال دراسة «بهجة المجالس» ومنهجه فيه كما بينا ذلك في موضعه.

وأما خصائص شعره عند الفتح بن خاقان فهي: «نفثات»<sup>(١)</sup> أي أنه شعر وتعبير عن مواقف تعبر عن عاطفة مشبوبة وأزمات متعبة وهو ما تدل عليه لفظة «نفثات»، وأكثر مقطوعاته تشهد بذلك، وأنه غلب عليه النصيح والوعظ «وأوصى فيه من تخلفه» أي أن أكثر شعره كان وصايا لمن يليه من أولاده، أو تلاميذه، أو أصدقائه، أو عوام الناس.

وأما ابن سعيد فقد وصف ابن عبد البر «بأنه في الأدب فارس»<sup>(٢)</sup> أي أنه بارع في هذا الجانب فتلين له أبيات الشعر وتنقاد له كما يلين الحصان تحت الفارس في جريه وينقاد له.

وجعل على ذلك دليلاً فقال: «وكفأك دليلاً على ذلك كتابه «بهجة المجالس»»<sup>(٣)</sup> «فبهجة المجالس بما حواه من منشور وشعر منظوم، وترتيب استوعب موضوعات شتى أورد فيه ابن عبد البر من الشواهد ما يدل على غزارة حفظه للأشعار وسعة اطلاعة على عيون الأخبار والحكم والأمثال مما ورد عن العرب والعجم»<sup>(٤)</sup>.

(١) «مطمح الأنفس ومسرح التأنس»: (٧٠).

(٢) انظر ابن سعيد «المغرب»: (٤٠٨/٤).

(٣) نفس المرجع.

(٤) انظر «بهجة المجالس»: (١٠٥، ١١٢، ١١٤، ١٣٣، ٢١١، ٢١٤، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٣٢، ٢٣٣،

٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩).

وجعله الدكتور منجد مصطفى بهجت المعبر عن الإتجاه الأدبي لدى (الشعراء الفقهاء) واستشهد بكثير من شعره، لأن الأدب كان أحد أركان اللسان العربي وهو عندهم -الفقهاء- وسيلة لغاية هي فهم الشريعة وتثبيت قيمها، وعلى هذا الأساس فالشعر مرآة تعكس طبيعة هذه العلوم وعلاقاتها ببعضها، وبهذا التصور يفسر اتجاه عدد من الفقهاء إتجاهها أدبيا، وقرضهم للشعر الذي يعضد فقههم ويعينهم على تنويع طرائق عرض مادتهم العلمية، ويكشف عن الوجه المشرق للحضارة الإسلامية.

ومن خلال النظر في الأغراض التي نظم فيها أبو عمر شعره يمكن أن نتبين خصائص شعره، وهي:

١- غلبة ثقافته الشرعية على شعره، فتخصصه الحديشي، والفقهية، والتاريخية يظهر في كثير من المقطوعات، وبخاصة التي تتعرض للحث على العلم والتعلم، أو مناقشة بعض الظواهر الثقافية في عصره كما بينا ذلك في أغراض شعره.

٢- روح الإلتزام بالمنهج الإسلامي في بيان وظيفة الأدب بصورة عامة، والشعر بصورة خاصة تظهر في مقدمتي كل من كتابيه «بهجة المجالس» و«الإهتبال».

٣- التلقائية وصدق العاطفة وحدة الطبع، فنجد ذلك في بعض قصائده التي يرتجلها في بعض المواقف الحساسة والمهمة في حياة الشاعر. ولعل قصيدته في حوارته مع زوجته حول الخروج من إشبيلية:

وقائلة مالي أراك مرحلا      فقلت صه واسمعي لقول مجملا  
تنكر من كنا نسر بقربه      وعاد زعافا بعد أن كان سلسلا  
إذا هان حر عند قوم أتاها      ولم ينأ عنهم كان أعمى وأجهلا

٤- نزوعه إلى روح السخرية والنقد والتهكم، وهذا مما يظهر لنا طبيعة شخصيته

الحساسية التي تتأثر برودة فعل سريعة في مواقف مختلفة، منها رده الشديد على زوجته عندما انتقدته على تركه لإشبيلية، وتهكمه ونقده للمعتضد بن عباد الذي تغير في معاملته مما جعل ابن عبد البر يحس بأن المعتضد أهانه لغروره، ونقده لظاهرة التعصب المذهبي، وسخريته من شارب الخمر ووصفه كاريكاتيريا بقوله: (كان أنفك دمل) أي متورماً أحمرأً، وتهكمه الشديد على الذي أهدى له نعلأً فغضب، ووصفه (بالسخافة واللؤم).

٥- الإعزاز بالعلم والمكانة العلمية، وقد رصد الفتح بن خاقان هذه الخصيصة بقوله «له شعر لم أجد منه إلا ما نفث فيه عن أنفة» وأنفته باعتزازه بنفسه وبعلمه جعلته يترك بلاط المعتضد بن عباد مجرد تغير وقع، فرحل خارج إشبيلية، لأنه لم يتحمل البقاء وهو يحس بالمهانة:

إذا هان حر عند قوم أتاهم      ولم ينأ عنهم كان أعمى وأجهلاً  
وإذا الكريم رأى الغرير قرينه      في منزل فالخزم أن يترحلاً

ويفخر بالعلم الذي أنزله منازل الهيبة والإحترام حتى جعل المعتضد نفسه يندم على فعلته ويرسل إليه ليرجع، ولكنه رفض.

وعندما جاءه ابن عبد البر لإطلاق سراح ابنه قام المعتضد إليه وأكرم وأحسن وفادته، وأطلق سراح ابنه، فقال:

إذا فاخرت فافخر بالعلوم      ودع ما كان من عظم رميم  
فكم أمسيت مطرحةً بجهل      وعلمي حل بي بين النجوم  
وكم أقبلت متداً مهاباً      فقام إلي من ملك عظيم

والبحث بهذه الخصائص الجملة قد أعطى وصفاً عاماً لشعر ابن عبد البر من خلال استقراء أشعاره التي وصلت إلينا، لترسم صورة أقرب إلى الواقع من خلال

تشخيص نفسية ابن عبد البر، وطبيعة شعره وصدق وواقعيته، والكشف عن جانب مجهول بالنسبة لعالم محدث فقيه مورخ موسوعي، أسهم في بناء صرح الحضارة الإسلامية في الأندلس خاصة وفي غيرها بعامة. فجزاه الله خير ما جزى عالم أديب بعلمه.

## حصاد البحث

بعد هذه الجولة في مسيرة ابن عبد البر الأندلسي الموسوعي الأديب الذي يعد نموذجاً لجمهرة من علماء هذه الأمة في مسارها الثقافي نحاول أن نجني حصاد هذا البحث وما توصل إليه من نتائج فنقول:

١- إن شخصية البحث ابن عبد البر الأندلسي نموذج موسوعي في ثقافته بشهادات علماء عصره أمثال ابن حزم وكفى بابن حزم مثيلاً فجعله بقية المجتهدين في الفقه وعده من فضائل الأندلس، وابن سعيد الأندلسي الذي عده في «حلية الأندلس في الأدب» والفتح ابن خاقان القيسي في «مطمحه وقلائده» والإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» وابن الأثير المؤرخ في كتابه «أسد الغابة»، وجعله مؤرخ العلوم طاش كبري زادة أحد السبعة من المحدثين الذين يرجع إليهم وكانوا بمرتبة أصحاب الكتب الستة المشهورة في الحديث.

٢- تميز ابن عبد البر في ثقافته الأدبية وثراء إنتاجه الأدبي بعامة، ومحدودية في الإنتاج الشعري، فهو صاحب مرويّات للشعر روى لنا كثيراً من الشعر المفقود وهو صاحب منهج ملتزم في الأدب ينطلق من رؤية إسلامية نلتزمها في أدبه وشعره ونقده، فضلاً عن مؤلفاته الأدبية التي أثنى عليها العلماء مثل «بهجة المجالس» و«الإهتبال فيما ورد في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال» وغيرها، استخدم ابن عبد البر هذه الثقافة المتنوعة في نموذج تكاملي، ليوفر إطاراً معرفياً

متكاملاً عند عرضه للجانب الأدبي خاصة والجوانب الأخرى بعامة فاستخدم المنهج الحديثي في النقد الخارجي والداخلي في نقد الروايات أو المصادر الأدبية، ووظف الخبر التاريخي والثقافات الأجنبية ومصادرها كالفارسية والرومية في الثقافة الأدبية، وكذلك اهتم بالرجوع إلى العهد القديم والجديد.

٣- استخدامه دراسة نفسية الشاعر وأثرها في شعره عند نقده للشعر وتحقيق نسبة الأشعار والأخبار الأدبية في كتابه «بهجة المجالس» و «الإستيعاب» و «السيرة النبوية» مثل:

نقد قصيدة الفرزدق في مدح عليّ بن الحسين، ونقد خبر الجاحظ عند تعليقه على أبيات أبي البلاد الطهوي، وفي دفاعه عن حسان بن ثابت لرميه بالجن، وتحليله للأخبار التي وردت في ذلك.

٤- موضوعيته في نقد الأخبار الأدبية والروايات الشعرية فهو يحيل إلى المصادر ويستخدم العبارات مثل: (هذا أصح عندي) و(وهذا الخبر عندي غير صحيح)، وينطلق في ذلك كله من القاعدة التي وضعها في منهجه (أن من بركة العلم أن تضيف الشيء إلى قائله).

وفي ختام هذا البحث أرجو أن أكون قد جليت نموذجاً يدل على تفرد علمائنا في نسقهم المعرفي الشمولي الموسوعي وهذا جهد المقل وأسأله تعالى السداد في القول والعمل.

